الموسوعة التاريخية
للخلفاء الفاطميين

الخليفة الثالث:

المنصور بالله

تأليف

عارف تامر
دكتور في الآداب



دار
الجيل

الطبعة الاولى

١٩٨٠ م - ١٤٠٠ هـ

في ربوع التاريخ

لسنا هنا في موقف الانتصار للفاطميين ، كما وأننا نأبى ونحن نكتب صفحات من تاريخهم أن نسند إلى أنفسنا مهمة محامي الدفاع عن هذه الأسرة الكبيرة التي لعبت دوراً بارزاً على مسرح العالم العربي في فترة مبكرة من فترات التاريخ الإسلامي . فمهمتنا كما عاهدنا أنفسنا تنحصر بإيراد الوقائع والحوادث ، مأخوذة عن المصادر التاريخية المختلفة دون تعليق ، فالتعليق معناه الرد ، والرد أيضاً معناه فتح الباب على مصراعيه ، والدخول في مناقشات ومهاترات لا حد لها . وكل هذا ألزمنا انفسنا منذ البدء أن نضرب صفحاً عن الانخراط في غمرة الصراع ، وإبعاد هذه الموسوعة عن الانحدار إلى المستوى الوضيع : فللفاطميين تاريخ طويل عريض حافل تناوله المؤرخون العرب والمستشرقون فأفردوا له صفحات كتبهم وصحفهم ، فمنهم من مدح ، ومنهم من قدح ، وإني في الحقيقة لم أرَ في التاريخ العربي أسرة حاكمة نالت من اهتمام الناس ، وتعرضت للطعن

والسب والشتم كما تعرضت هذه الأسرة ، ويكفي أن يكون وصل الأمر ببعضهم إلى نسبتها لليهودية تارة ، وإلى المجوس أخرى . . . ولعلّ هناك دوافع وأسباب تكمن خلف الأكمة ، وقد ظلّت وستظل غامضة إلى أن يقيض الله لها ما لم يكن في الحسبان .

ومهما يكن من أمر ، وحيال هذا الواقع المرير ، ولكي يكون القارىء الكريم على معرفة شاملة بالموضوع من كل جوانبه ، رأينا أن نضع في هذا الجزء من الموسوعة المخصّص للخليفة الفاطمي الثالث « المنصور بالله » بعض آراء وأقوال المؤرخين عن نسب الفاطميين ، وبذلك نكون قد أفسحنا المجال أمام القارىء لاستخلاص ما يراه صحيحاً ومعقولاً ، كيف لا والتمييز بين الغث والثمين لمن أولى واجبات الإنسان المثقف عندما يترفع عن الأحقاد والرواسب .

أجل . . . ترك المؤرخون العرب الأقدمون آراء كثيرة متباينة عن نسب الفاطميين ، ومن الجدير بالذكر أن الاختلافات بينهم لم تقف عند حد ، بل أعقبها تعليقات شتّى ، وتقولات وآراء عديدة كان منها المؤيدة ، ومنها الداحضة ، وقد يكون من الفائدة إعطاء القارىء فكرة عنها :

إن المستشرق الإفرنسي دي ساسي « De Sacy » في

كتابته عن الموضوع ألقى قبساً من النور ، وخرج عن مبدأ التحيز ، ويبدو أنه وضع أمامه فكرة نقد شذرات مهمة كتبها « الشريف أخو محسن العلوي الشيعي » وهو ضد الفاطميين ، وقد نقلها عنه ابن النديم ونسبها خطأً إلى ابن رزّام ، ولكن المؤرخ النويري في كتابه نهاية الارب ، والمقريزي في تاريخه اتعاظ الحنفا ناقشا عبارة أخي محسن تلك ، وفندا أقواله ، ولم يأخذا بها .

ودي ساسي بعد أن اطلع على كل ذلك مال إلى الأخذ بمبدأ صحة نسب الفاطميين فقال :

« لو ان عبيد الله المهدي كان دعيّاً حقاً ، ولم يكن من سلالة علي بن أبي طالب ، فإن ابناء علي الحقيقيين الذين لم يتطرق اليأس إلى نفوسهم لم يفقدوا الأمل قط في أنه سيأتي اليوم الذي يستطيعون فيه أن يؤكدوا حقوقهم ، وأن يهتموا بكشف القناع عن هؤلاء الأدعياء » ويضيف :

« إن مسألة نسب الفاطميين من أعقد مسائل تاريخ الشرق وأكثرها غموضاً وإبهاماً ، ويقيني أن كتّاب التاريخ في ذلك العصر كتبوا ما كتبوا متأثرين بسطوة العباسيين الحاكمين » .

وقال المستشرق كترمير « Quatremére » :

«على أن بعد الزمن ، وما ساد العقول من أوهام ، وما تسلط على نفوس الرجال من ميول ونزعات ، وما أدلى به المؤرخون من أدلة متناقضة متضاربة ، فمنهم من كتب متأثراً بسلطان العباسيين ، ومنهم من قام بهذا العمل عن سابق عداوة وحقد لهذه الأسرة ، وكل هذا أحاط مسألتهم بظلام دامس ، وعلى الرغم من تباين آراء الكتاب الأقدمين في هذه المسألة ، فإني أميل إلى القول باطمئنان وثقة بأن نسب الفاطميين إلى علي وفاطمة صحيح لا غبار عليه» .

ويعلق بعض المؤرخين على قصيدة «الشريف الرضي» الشاعر الكبير ، والفقيه العلوي المشهور ، تلك القصيدة التي أثارت وحركت أحقاد وحنق الخليفة العباسي القادر ، وقد نقل المؤرخ المقريزي عن هلال الصابي وابنه محمد : بأن الرضي لم يودع ديوانه هذه القصيدة خوفاً من الخليفة العباسي لأن فيها دعماً لنسب الفاطميين ودليلاً على قرابته منهم ، وهي على العموم وثيقة تاريخية دامغة تثبت انتساب الرضي لخليفة مصر الفاطمي :

أما مقامي على الهوان وعندي مقولٌ صارمٌ ، وانفٌ حميٌ
حمل الضيمَ في بلاد الأعادي وبمصر الخليفة العلويُّ

من أبوه أبي ومولاه مولا ي إذا ضامني البعيد القصيُّ
لفَّ عرقي وعرقه سيدا النا س جميعاً محمدٌ وعليُّ

أما المؤرخ ابن الأثير فإنه جعل لقصيدة الشريف الرضي هذه أهمية تاريخية كبرى وزاد فقال :

« إنه ناقش مسألة هذا النسب مع جماعة من العلويين العالمين بالأنساب ، فلم يرتابوا في أن الفاطميين من أولاد علي وفاطمة » .

ويأتي المؤرخ ابن خلدون ليدحض في مقدمته كافة الأقوال التي أنكر فيها الكتاب والمؤرخون صحة نسب الفاطميين فيقول :

« ومن الأخبار الواهية ما يذهب إليه الكثيرون من المؤرخين عن « العبيديين » الشيعة في القيروان ونفيهم عن أهل البيت ، والطعن في نسبتهم إلى إسماعيل بن جعفر الصادق ، فهؤلاء يعتمدون على أحاديث لفقت للمستضعفين من خلفاء بني العباس تزلفاً إليهم بالقدح ممن ناصبهم العداء » .

أما المؤرخ المقريزي فقد شدد النكير على هؤلاء القائلين بعدم صحة النسب ، فهو في بعض مراجعه يعتبر أن نسبتهم إلى « القدّاح » أسطورة سخيفة ، ويضيف على ذلك قوله :

« إن الأئمة الفاطميين في «سلمية» لم يكونوا معروفين لغير خاصتهم ، وأن العامة لم يكونوا يعرفون أسماء هؤلاء الأئمة ، كما أن دعاتهم أنفسهم كانوا يختلفون قصداً في ذكر أسمائهم، وذلك لكي يحوطوهم في سياج من المنعة والتخفي » وقال في مكان آخر من كتابه :

« إن علية القوم في مصر ومن بينهم طائفة من الاخشيديين ورجال البلاط جميع هؤلاء قدموا كل ما استطاعوا من معونة لعبيد الله المهدي عندما جاء إلى مصر بطريقه إلى المغرب لا لشيء إلاّ لأنه من أولاد علي وفاطمة » .

وفي الأبيات التالية للشاعر المغربي «ابن سعدون الورجيلي» بيان واضح عن نسب عبيد الله المهدي :

هذا أمير المؤمنين تضعضعت　　لقدومه أركان كل أمير
هذا الإمام الفاطميُّ ومن به　　أمنت مغاربها من المحذور
يا من تخيَّر من خيار دعاته　　أرجاهم للعسر والميسور

الفكر الفاطمي في بنيان الاسلام :
الامامة ــ قيادة وسياسة :

هذا الفصل كان لا بد من إثباته أيضاً في هذا الجزء من الموسوعة والغرض منه إلقاء الأنوار على نواحي غامضة ، وإظهار حقائق محجوبة عن الأنظار ، وإعطاء فكرة صحيحة عن موضوع شغل ويشغل فكر المثقف العربي . ولا بد من القول بأن كل ما نذكره لا يخرج عن كونه خدمة أدبية تقود إلى الواقع المجرد ، والحقيقة الواضحة ، لا سيما وفيها دحض لكافة الادعاءات والاقوال التي تحكمت بالعقول فترة من الوقت ، ثم طغت عليها فكانت سبباً لضياع الحقائق ولطمس الوقائع .

فنحن عندما نقول بأن الفكر العربي بالرغم من اتساعه ، وشموله ، ووفرة عطاءاته ، وخصب لمحاته قد تأثر في عهد ظهور الإسلام بأفكار غريبة ، ولقاحات جديدة تسربت

إليه من مجتمعات دينية وثقافية أخرى بفعل العوامل السياسية العنيفة التي اتخذت أهدافاً لها مغايرة كانت ترمي إلى إحداث الفجوات في البنيان المتين الذي اكتمل بظهور الرسالة المحمدية السمحاء ، فلا نكون قد خرجنا عن مبدأ الواقعية ، أو تجاوزنا حدود الحقيقة .

فهذا الفكر كان لا بد له من الرضوخ ، والانصياع إلى الملامح ، وإلى الإشعاعات التي ظهرت بسرعة ثم تسربت إلى الأرض الخصبة لتخلع عليها مبادىء جديدة وأفكار تحمل في باطنها طعن الأصل والجوهر ، وتفكيك كل ما جاء به من أفكار وتعاليم ومبادىء ، وقد يكون من أولى الواجبات على الباحث المنصف دراسة التقلبات الفكرية ، والتلاحقات العقلية في ذلك العصر البعيد ، وتسليط أنوار العقل ، واستخدام المجاهر لرؤية الخيوط المتشابكة ، وسبر أعماق ما وراء الموضوع من أمور خافية ، وقضايا مجهولة غطّت على الحقيقة ، وحجبتها عن الأنظار فالعقل الإنساني منذ أن وجد على سطح هذا الكوكب يحنّ إلى الانفلات من القيود التي توضع لتقييد أفكاره وتطلعاته ، ويتوق إلى الكمال المطلق حيث المعرفة والراحة والاطمئنان .

هذا الواقع الحياتي لا أجد تعبيراً أطلقه عليه سوى القول :

بأنه انتفاضة العقل ، أو الثورة على القديم ، فكثيراً ما تكون هذه الانتفاضات مخلوقة فيه ، او راقدة في أجزائه تنتظر الفرصة السانحة للظهور ، وقد يكون للعوامل ، وللمؤثرات الخارجية أسبابها وفاعليتها في تحركه ، وخروجه أحياناً عن الواقع المألوف .

أجل . . . كان العقل العربي بعد أن استراح في ظل الإسلام يمتلك قوة روحية وطاقة طافحة بالإيمان ، مستعدة لقبول أي تأثير نبيل يدخل عليها ، ويزيدها قوة وتقدماً وانطلاقاً . . . إذ أن الإسلام غمرها بالثمار الفكرية اليانعة ، والدفع الجديد ، والدم الشاب ، فأفاض عليها الخلق والإبداع ، وأعطاها النمو والازدهار وقلب الموازين ، وغيّر الاتجاهات لدرجة أنه نفذ إلى ما وراء الحدود ليزرع فيها بذور المعرفة والثقافة والشروق ، ولكن لا بد لنا ونحن في معرض التحدث عن هذا الموضوع من التساؤل ؟

هل استمر ذلك الواقع طويلاً ، وهل سلمت الأفكار الجديدة من مؤثرات برزت للوجود وفي جعبتها التيارات الجارفة ، والتعاليم العصبية التي تهدف إلى إحداث الانتفاضة في بناء العقل ، وتحويله عن مبادئه وأهدافه ، وجعله يسير في اتجاهات أخرى تكمن في جوانبها الثغرات والفجوات ؟

إن الوقائع والحقائق تدل على انه ما كاد نجم الرسالة المحمدية يتوارى حتى ظهرت للوجود الأفكار الجديدة ، والدعوات المستوردة التي قامت باسم الدين وأخذت تبشر بأفكارها ، وتستقطب المؤيدين من الناقمين والطامعين ، وقد يكون أسباب كل هذا أطماع النفوس ، والتخلي عن المبادىء الإنسانية ، وتحريك العصبيات ، وبروز النزوات ، والدعوات القبيلية والعائلية .

فلقد حوّل ذلك الواقع المبدأ الأساسي عن نهجه الأصيل ، وسار بعيداً في مضمار التطرف العنيف لدرجة أنه لم يترك فرصة للالفة أو التقارب بين الفئات المتصارعة وكان من جراء تلك الفرقة أو الهوة السحيقة ان فصلت الأجزاء المتلاحقة عن بعضها البعض وجعلتها عرضة للتيارات الجارفة وللعواصف الهوجاء تتلاعب بها ، وتعصف بحياتها ، ووجودها . . . وهنا لا بد من العودة إلى التاريخ لاستعراض ما جاء فيه ، مدللين على أن الحقيقة كثيراً ما يجرفها الجهل ويخفيها وراء سجفات الظلام .

إن مبدأ « التشيع » كان أول بذرة غرست في أرض البناء ، بل أول دعوة تسربت للمجتمع الإسلامي بعد انتقال النبي الكريم ، وهي في الحقيقة فكرة بثها وعممها ودعا إليها

الفريق المعارض الذي خسر معركة الخلافة الأولى ، أو بلغة أصح هي الطعنة النجلاء التي لم يكن هناك بدأ من توجيهها للفئة الحاكمة التي استأثرت بالحكم ، وتلك المبادىء كما هو معروف ارتدت الطابع الديني باسم « الخلافة » ثم تفرعت منها فيما بعد الدعوات الأخرى المختلفة التي لا تزال قواعدها قائمة وعاملة حتى يومنا هذا .

فالامامة التي تعتبر من وجهة النظر الشيعية المحور أو الركن الأساسي للعقيدة وللدولة ، تطورت وانبثقت عنها نظريات أخرى اتخذت أبعاداً أخرى مختلفة ثم تشعبت وأدت إلى اختلافات وانقسامات بالأصول وبالفروع مما يطول شرحه .

وفي هذه الصفحات نرى لزاماً علينا ، ونحن في صدد التحدث عن التاريخ الفاطمي ، أن نستعرض آراء أعلام الفاطميين في « الإمامة » ودورها في القيادة ، وكل هذا مأخوذ من مصادر تاريخية موثوقة ، ولا شك أنها تغير الأفكار ، وتمحي النظريات ، وتعيد الحقيقة إلى قاعدتها ، والواقع إلى أساسه .

فالإمامة لم تكن في يوم من الأيام بالنسبة للفاطميين إلاّ القاعدة الرئيسية للدولة وللدين ، وقد استعاضوا بها عن الخلافة قبل الدور الفاطمي في أفريقيا الشمالية ومصر ، التي قال بها

الأمويّون والعباسيّون ، كما أنهم أطلقوا عليها اسم « الوصاية » ومعناها التولية . إذن فهي نظام من أنظمة الحكم قوامه القرآن ، وأساسه الشريعة المحمدية ، فالإمام عندهم هو نائب النبي ، والقائم مقامه في الحفاظ على اسس الدين ، وحماية الشريعة وحراستها وحفظها من أي تغيير أو تحوير أو تبديل ، ومن الحقائق الثابتة أن الإمامة ليست رجعة الإمام بعد موته أو التجسيم أو الحلول ، أو معرفة الغيب والأسرار ، أو القدرة على كل شيء ، أو تقمص الألوهية ، وقد يكون من المفيد إيراد الشواهد التي تلقي الأنوار الساطعة على هذه العقائد ، وتبعد عنها التقولات الأخرى التي هي بحد ذاتها بعيدة كل البعد عن الجوهر والأصل .

فقد ورد في كتاب « المجالس والمسايرات » خطاب وجهه الخليفة الفاطمي الرابع المعز لدين الله إلى قاضي قضاته « النعمان بن حيُّون » التميمي قوله :

« إنه انتهى إليك وإلينا قولهم اننا ندفع نبوءة محمد ، وندعي النبوءة بعده ، وندفع سنته وشريعته وندعو إلى غيرها ؛ فلعن الله من قال بهذا وانتحله وادعاه ومن تقوّله علينا ورمانا به ونسبه إلينا » .

وقال داعي الدعاة المؤيد في الدين في مجالسه المؤيدية :

« من دان بألهية البشر ممّن مضى ومن غبر ، خاب في الدارين وخسر ، وما فيه عبرة لمن اعتبر ، وذكرى لمن تذكر ، فاستعيذوا بالله تعالى من الوقوف في موقف شركهم وإطلاق الألسن بمثل افترائهم وكذبهم » .

وقال أيضاً في أحد مجالسه المؤيدية ايضاً :

« وجانبوا الغلو فيهم ، فإن الغالي هالك ، وفي وادي سقر سالك ، واعلموا أن أولياء الله من طينة الأرض معجونون ، وللكون والفساد من حيث اجسامهم مضمونون ، يمسكهم الشراب والطعام ، وتلحقهم الأمراض والآلام، ويقضي عليهم عند استيفاء أيامهم الحمام ، لا كما زعم الزاعمون من الجهلة الذين تسببوا في اعتقادهم السخيف إلى الراحة واطراح التكليف انهم متردون برداء الإلهية ، وفي قولهم من الخلل ما لا يعلق بقلب ، ولا ينطوي على ذي لب » .

وقال الفيلسوف الكرماني في رسالة الهادي والمستهدي :

« إن أعظم الفرق ضلالة هي « فرقة الغلاة » التي ضلّت وأضلّت غيرها فانسلخت عن جملة أهل الدين والديانة » .

وقال المؤرخ المقريزي :

« إن الحاكم بأمر الله عمد سنة ٣٩٥ هـ إلى إصدار قوانين

بدافع الشعور الديني لإصلاح الأخلاق ، وتطهير النفوس من رذائل المجتمع ، كما انه أصدر السجل المشهور وسمّاه « أمان جدنا محمد خاتم النبيين ، وأبينا علي خاتم الوصيين » .

وقال ابن خلدون :

« وامّا ما رمي به الحاكم بأمر الله فغير صحيح ولا يقبله عقل سليم » .

وقال العلاّمة الدكتور سرور :

«ليس هناك ما يثبت ان الحاكم بأمر الله قد ذهب بتصوراته الدينية إلى حد الخروج على قواعد الإسلام » .

وقال محمد عنّان :

« لقد ظلم التاريخ الإمام الحاكم بأمر الله كما ظلم غيره من المصلحين ، فالحاكم كان مصلحاً على طريقته ، وكان يرمي بما يصدره من القوانين والأحكام إلى غايات خفيت على العامة لأنها تتعلق بسياسة الدولة العليا ، من هنا كان الريب في حكمتها ، وكانت القسوة في تطبيقها » .

وقال العقاد :

« كان الحاكم يمنع تقبيل الأرض بين يديه ولا يرضى ان تلثم يداه وركبتاه » .

« ما أخذ فينا ، ولا أراد إدخال النقص على شيء من امرنا إلاّ ابتلاه الله في عاجل الدنيا ببلاء يكون نكالاً » .

وقال الخليفة الفاطمي الثاني القائم بأمر الله :

« إنما يذهب إلى النار من انتسب إلينا ، وقال عنّا اننا نعلم الغيب وما تخفي الصدور » .

وقال الدكتور محمد كامل حسين الاختصاصي بالتاريخ الفاطمي في كتابه في أدب مصر الفاطمية :

« وهكذا فإننا نرى الفاطميين لا يختلفون في عباداتهم عن غيرهم من المسلمين ، فهم يحرمون ما حرمه الله ، ويتجنبون المآثم والمعاصي ، ويحللون ما أحلّه الله للمسلمين ، ولكن التأويل الباطني هو السبب بتوسيع هوة الخلاف ، فهذا التأويل الذي سيطرت عليه أهواء السياسة والزعامات الدنيوية فقد أسبغوا بتأويلهم الفضائل على أئمتهم فجعلوهم بمقام العقل الأول ، وصفات الله ، وأسماءه الحسنى جعلوها للعقل الأول ، أمّا الخالق المبدع فقد نزّهوه عن كل صفة ووحّدوه وقالوا :

بأن الإمام مكوّن من جسم ونفس ، وبعد موته يتحلل كل قسم إلى ما يناسبه ، فالجسم الترابي يعود إلى التراب ، والنفس اللطيفة تعود إلى ما يناسبها ويجانسها فتصبح هذه

النفس عقلاً من العقول المدبرة للعالم ، فلا تتناسخ ، ولا تتلاشى . فالفاطميون لم يقولوا بالتناسخ ولا بالحلول ولا بالتلاشي . وهذا أكبر داعٍ من دعاتهم وهو المؤيد في الدين داعي الدعاة يقول في هذا المعنى :

فكيف شرع الأنبياء ندفعُ　　وما لنا إلاّ النبي مرجعُ
بنوره في الدرجات نرتقي　　وبالكرام الكاتبين نلتقي
يا رب فالعن جاحدي الشرائع　　وارمهم بأفجعِ الفجائع
والعن إلهي غاليـــاً وقالياً　　ولا تذر في الأرض منهم باقيا

ويذكر التاريخ :

إن الإمام علي بن أبي طالب كان أشد قسوة ، وصرامة على القائلين بالألوهية ، وهكذا جعفر بن محمد الصادق ، فإنه حارب الأفكار المتطرفة كما حاربها أحفاده الذين جاءوا بعده ، وتبرأوا من قائليها ، كما أنهم حثوا دعاتهم على نبذها ، وشجبها ، واستهجانها .

وجملة القول فإن الفاطميين رتبوا لدعوتهم نظاماً دقيقاً محكماً لا نكاد نجد له مثيلاً في تاريخ الدول والدعوات حتى في عصرنا هذا الذي عرف فيه للدعاية القدر والمكانة .

وعندما نقول ذلك يتبادر إلى ذهننا العصر الذي عاشوا

فيه . . . ذلك العصر الذي يعتبر من أزهى عصور الإسلام ، وأكثرها رقياً ومدنية وحضارة ، وخاصة من الناحية الفكرية ، حيث أن الحياة العلمية وصلت إلى درجة كبيرة من النمو والازدهار . . . فقرّب الخلفاء الفاطميون العلماء ، وشجعوا الطلاب ، وأوقفوا الأرزاق الثابتة على المشتغلين بالعلم حتى يتهيأ لهم التفرغ لما أهّلوا أنفسهم له ، فكانوا أسبق من كافة الدول الإسلامية إلى فهم حقيقة العلم وأسبق من جميع الدول الأخرى التي لم تعرف للعلماء قدرهم ، ولم تعطهم حقهم ، وقد رأينا كيف كانوا يهتمون بإنشاء دور العلم ، والمعاهد ، وخزائن الكتب ، والمكتبات ، وهكذا وجد العلماء ملاذاً يؤويهم من العوز ، ويحميهم من الفاقة ، بل وجدوا ما يشجعهم على مواصلة التحصيل والبحث والدرس والتأليف . وشجع الفاطميون العلم القائم على العلم والعقل والجدل والمناظرات لأن مبادءهم كانت تقوم على العلم والعمل بآن واحد ، واستخدام العقل ، ومطابقة المحسوس للمعقول ، ولقد أثرت الفلسفة اليونانية ، والمذاهب القديمة فيهم فاهتموا بألوان هذه الدراسات الفلسفية ، واستعملوا بعض اصطلاحاتها وطرقها ، ودرسوها حق دراستها في وقت كانت بعض الفرق الأخرى ترمي كل من يشتغل بالفلسفة بالزندقة والإلحاد .

ومهما يكن من أمر فإن الفكر اليوناني وجد ترحيباً من الفاطميين ، وقد توسعوا في دراسته وفلسفته ، وقد ذكر المستشرق أوليري :

بأن الحركة الفاطمية أخذت مكانتها في جو مشبع بالفكر الهليني ، وإحياء دراسة المواد اليونانية . ونحن لدينا أكبر دليل على اهتمام الفاطميين بالعلوم . . . فقد ذكر :

بأن الخليفة الفاطمي الخامس العزيز بالله كاتب جبرائيل ابن بختيشوع واستدعاه إلى مصر فاعتذر ، واستدعى الخليفة السادس الحاكم بأمر الله الحسن بن الهيثم فاستجاب له وأقام في القاهرة تحت كنفه ، وكتب الحاكم بأمر الله أيضاً إلى والي حلب يطلب إليه دعوة المعري إلى مصر ، وكان قد عرض عليه بناء دار للعلم خاصة به ، مضافاً إلى ذلك انه سمح له بخراج معرة النعمان في حياته وبعد موته ، وعرف عن الفاطميين أنهم كانوا متسامحين مع العلماء الذين لم يدخلوا في عقيدتهم ، أو يستجيبوا لهم .

وقد ذكرنا ان الفاطميين كان لهم دعاة في جميع أرجاء البلاد الإسلامية يناقشون ويجادلون أصحاب المذاهب الأخرى ، ورأينا كيف التفّ عدد كبير من العلماء حول هؤلاء الدعاة

يأخذون عنهم العلوم والمعارف، وهذا يدل على ان حركتهم لم تتوقف في قطر معين بل شملت كافة الأقطار الاسلامية وخاصة في القرن الرابع للهجرة .

فابن حوقل كان متشيعاً حتى أنه نسب إلية أنه كان من دعاتهم ، والفارابي عندما يتحدث عن القلم واللوح والحدود العلوية فإنه يستخدم تعابيرهم ، واصطلاحاتهم ، وابن سينا عرف بأنه ابن أحد دعاتهم، وأن فلسفته لا تختلف إلاّ قليلاً في الفروع والأسلوب عن فلسفتهم ، وابن الهيثم كما ذكرنا كان متصلاً بأحد أئمتهم وعاش في كنفه ، والمعري كان متأثراً بآرائهم إلى حد بعيد ، والغزالي انتهى في أواخر حياته إلى حد الإيمان بفلسفتهم وهكذا نصير الدين الطوسي ، والمجريطي وغيرهما .

والحقيقة : فإن الوقت لا يسمح الآن بتعداد الوقائع مفصلة عن المدرسة الفاطمية الفكرية ودورها في خدمة الفلسفة والعلوم، ولكن لا بد من القول بأن كتابهم « رسائل إخوان الصفاء وخلاّن الوفاء » قد ضمّ مختلف أنواع العلوم كالرياضيات والموسيقى والطب والطبيعيات والمنطق والأدب والشعر وعلم الفلك إلى غير ذلك ، وهكذا يظهر لنا من كتابهم هذا بأنهم كانوا يعتمدون على العلوم ، ويميزون الإلهيات من الطبيعيات .

ومهما يكن من أمر فإن التوحيد الفاطمي الإلهي قد ورد في كتبهم وهو يعطي الدليل على عراقتهم وامتلاكهم مبدأ التوحيد الصحيح الذي اعتبر بأنه فتحاً جديداً في عالم الإلهيات والعبادات ، فالله عندهم هو المنزه عن الأسماء والصفات . . . لم يتجانس ، ولم يتشاكل ، ولا تبصره الأبصار أو تدركه الأفكار ، أو تلحق به العقول . . . ليس في مكان ، ولا في زمان ، لا بأول ولا بآخر ، لا يعرف ، ولا يبصر ، ولا يحصر ، ولا يكيف ، فهو مبدع الوجود ، وأول الوجود . . . تعالى عن شبه المحدودين ، وتحيرت الأوهام في نعت جبروته ، وقصرت الأفهام عن صفة ملكوته ، وكلّت الأفكار عن إدراك عظمته .

والخلاصة فنحن عندما نذكر كل هذا فإننا لا نتوخّى إلاّ إيفاء الموضوع حقه من البحث ، وجعل القارىء الكريم على معرفة وبيان شامل بكل ما يتعلق بالفاطميين سواء من الناحية السياسية أو الفكرية أو الاجتماعية .

أمام المصادر التاريخية :

في موسوعتنا هذه اعتمدنا على مصادر تاريخية عديدة ذكرنا أسماءها في آخر كل كتاب ، وهناك مصادر لم نأخذ عنها إلا بما يقرب إلى العقل ، لأن فيها الكثير من التشويش والمبالغة ، بالرغم من أن بعضها فاطمية ، وهنا لا بد من وقوف أمام هذه المصادر وإيراد بعض منها بالنظر لطرافتها :

هناك كتاب « المجالس والمسايرات » ، وكتاب « افتتاح الدعوة » وهما للقاضي النعمان بن حيُّون التميمي قاضي قضاة الدولة الفاطمية ، وهناك كتاب « استتار الإمام » للنيسابوري « وعيون الأخبار » لادريس عماد الدين ، وسيرة « جعفر الحاجب » لمحمد اليماني ، وسيرة جوذر الكاتب ، وهناك أيضاً قصيدة « ذات المحن » للنعمان وهي تعتبر من أقوم المصادر في وصف ثورة أبي يزيد مخلّد بن كيداد الخارجي ، ونبدأ بسيرة جوذر :

ففي هذا الكتاب يتحدث مؤلفه عن رجل من رجال الدولة الفاطمية الذين أغفل المؤرخون ذكرهم ، وهو جوذر الصقلي الملقب بالأستاذ ، وقد كانت له مكانة رفيعة في الدولة الفاطمية بالمغرب ، ومكانة عليا لدى الخلفاء الفاطميين .

يحدثنا الكتاب :

عن دخول جوذر في خدمة عبيد الله المهدي أول خليفة فاطمي بالمغرب ، ويذكر كيف أن المهدي أهدى هذا الغلام إلى ولي عهده القائم بأمر الله ، وكيف قويت أواصر الثقة والمودة بين العبد وسيده ، حتى أن القائم وكان لا يزال ولياً للعهد استخلفه على قصره وعلى جميع من فيه من الأهل والحرم ، حينما ذهب على رأس إحدى الحملات العسكرية ، ولمّا توفي المهدي خصّ القائم جوذر دون سائر أهله ورجال الدعوة بمرتبة الاستيداع أي الوصاية على ولي عهده المنصور بالله بن القائم ، فظل هذا السر ثلاث سنوات حتّى أعلن القائم ولاية العهد على الملأ ، وفي خلافة القائم أصبح جوذر صاحب بيت المال ، ووكل بخزائن الكساء ، كما كان سفيراً بين الخليفة وسائر الناس ، وهكذا ارتفعت منزلة جوذر وأصبح له نفوذاً واسعاً في تلك الدولة الفتيّة فهابه الناس ، وقد اشتهر بحبه

للخير ، وعطفه على الفقراء ، وطبقات الشعب مما جعل له مكانة في قلوب الناس كافة .

وعندما توفي القائم بأمر الله لم يعلن المنصور بالله عن وفاة أبيه ، وأبقى الأمر سراً ولم يعلم به إلا جوذر ، ثم أنه خرج لحرب الخوارج ، واستخلف جوذر على دار الملك ، وسلّمه مفاتيح خزائن الأموال ، ولمّا عاد من حروبه « أي بعد سبعة أعوام » أعلن عن موت القائم ، وكافأ المنصور جوذر على خدماته وأعتقه ولقبه « مولى أمير المؤمنين » وأمره أن لا يكني في رسائله أحداً ، ولا يقدم على اسمه اسماً إلا الخليفة ، وولي العهد ، وأن يرقم اسمه بالذهب على ملابس الخليفة ، وولي عهده ، وأن يثبت اسمه على البسط والحصر كل ذلك إمعاناً بتكريمه ، ويحدثنا التاريخ :

بأن جوذر مات وهو في طريقه إلى مصر للحاق بالخليفة الرابع المعز لدين الله في مكان بالقرب من مدينة برقة يعرف « بمياسر » وذلك سنة ٣٣٢ هـ .

لم تقف أهمية سيرة جوذر على ناحية معينة من تاريخ الفاطميين ، أو على ترجمة أحد رجال دولتهم الذين كان لهم أبلغ الأثر في إعلاء شأنها منذ نشأتها ، وإنما يوضح بعض نواحي مهمة أغفلها المؤرخون القدماء ، أو مروا بها مروراً عابراً .

في الكتاب أيضاً صفحات عن تلك الثورات العنيفة التي نشبت بالمغرب عقب قيام الدولة الفاطمية ، وفيه عن علاقة الفاطميين بجزيرة صقلية ، ويظهر لنا وهذا أهم من كل ما ذكرناه (الجفاء والعداوة التي انبثقت بين الخليفة الثالث المنصور بالله ، وبين أبناء عمومته من أولاد الخليفة الأول «عبيد الله المهدي» وكيف طلب المنصور إلى جوذر أن يراقب حركاتهم ويرصد تنقلاتهم وذلك حينما ذهب لحرب الخوارج).

أمّا مؤلف هذه السيرة فهو رجل مغمور ويعرف بمنصور الجوذري العزيزي، وكان قد دخل في خدمة جوذر سنة ٣٥٠هـ وأصبح موضع سره ، وقد ظل هذا في عمله حتى توفي جوذر ، فاتصل بالخليفة المعز لدين الله ثم بالعزيز بالله ، وذكر أن الخليفة العزيز بالله جعله في نفس المرتبة التي كانت لجوذر .

وهناك مصادر آخر لا يقل أهمية عن المصدر الأول ، وأعني به سيرة جعفر الحاجب تأليف محمد اليماني ولكنها كتبت بلغة عربية ركيكة وقد رويت عن جعفر الحاجب الذي رافق عبيد الله المهدي برحلته من «سلمية» إلى أفريقيا الشمالية ، وفي سيرته بعض الطرائف منها .

إن أمر الشيعة في مصر أخذ يتزايد منذ أن استطاع دعاة

عبيد الله المهدي مؤسس الدولة الفاطمية من بسط دعوتهم في شمالي أفريقيا ، وقد كان للمهدي دعاة وأنصار بمصر لا يحصى عددهم .

وحدثنا جعفر بسيرته :

إن المهدي نفسه دخل مصر متستراً في زي التجار ، وكانت الكتب من بغداد قد وصلت إلى مصر بصفة المهدي ، والأمر في طلبه ، ولكن بعض أهل خاصة والي مصر كانوا مؤمنين بدعوة المهدي فأسرع إليه بعضهم بالخبر ، ولطف في أمره إلى أن خرج من مصر ومعه القائم وبعض عبيده . . . ويزيد جعفر على قوله :

سرنا « أي المهدي ورجاله » من الرملة إلى مصر ، فاستقبلنا أبو علي الداعي وكان مقيماً بمصر يدعو بها ، وأكثر دعاة الإمام من قبله ، وكان الداعي فيروز هو الذي رعاه وربّاه وزوّجه ابنته أم أبي الحسين ولده ، فتقدم إليه المهدي قبل دخولنا مصر بأن لا ينزله عنده ، ولا عند من يشار إليه بشيء من أمرنا ، وأن ينزله عند من يثق به ، فأنزله عند ابن عيّاش .

ويقول :

ولمّا تم الأمر للمهدي بالمغرب سنة ٢٩٦هـ راسله شيعته

بمصر للقدوم إليهم ، وفعلاً غزاها الفاطميون ثلاث مرات ، ومنها مرة بقيادة « حباسة بن يوسف الكتامي » الذي دخل الاسكندرية ، ولكن تكاثر جيوش العباسيين جعل حباسة ينهزم ، وقد شعر والي مصر بأن الكثيرين من المصريين يكاتبون الفاطميين ، ويطلبون إليهم غزو بلادهم ، فتتبعهم الوالي وسجن عدداً كبيراً منهم ، وفي ذلك يقول الشاعر ابن مهران المصري :

وقد وافى حباسة في كتامٍ ... بكلّ مهندٍ وبكلّ خطي
وقد حشدوا لمصر ودون مصر ... له خرط القتاد وأي خرط
وأقبل جاهلاً حتّى تخطّى ... وجاز بجهله حد التخطي
بكتب جماعة قد كاتبوه ... ومن أقباط مصر وغير قبطي
وكلٌ كاتبوهُ ونافقونا ... وكلٌ في البلاد له موطي
فقل لحباسة إن كنت عنّا ... مضيت فإن قتلك ليس يبطي

ثم يذكر الحملة الثانية التي قادها القائم بأمر الله سنة ٣٠٧هـ والذي تمّ فيها فتح الاسكندرية والفيوم ، ومن الروايات التي يذكرها جعفر الحاجب في سيرته قصة طريفة عن الخليفة الفاطمي الثاني القائم بأمر الله عندما كان في طريقه إلى شمالي أفريقيا ، وكان شاباً طري العود مع عبيد الله المهدي يقول :

بمصر للقدوم إليهم ، وفعلاً غزاها الفاطميون ثلاث مرات ، ومنها مرة بقيادة « حباسة بن يوسف الكتامي » الذي دخل الاسكندرية ، ولكن تكاثر جيوش العباسيين جعل حباسة ينهزم ، وقد شعر والي مصر بأن الكثيرين من المصريين يكاتبون الفاطميين ، ويطلبون إليهم غزو بلادهم ، فتتبعهم الوالي وسجن عدداً كبيراً منهم ، وفي ذلك يقول الشاعر ابن مهران المصري :

وقد وافى حباسة في كتامٍ بكلٍّ مهندٍ وبكلّ خطي
وقد حشدوا لمصر ودون مصر له خرط القتاد وأي خرط
وأقبل جاهلاً حتى تخطّى وجاز بجهله حد التخطي
بكتب جماعة قـــد كاتبوه ومن أقباط مصر وغير قبطي
وكلٌّ كاتبوهُ ونـــافقونا وكلٌّ في البلاد له موطي
فقل لحباسة إن كنت عنّـــا مضيت فإن قتلك ليس يبطي

ثم يذكر الحملة الثانية التي قادها القائم بأمر الله سنة ٣٠٧هـ والذي تمّ فيها فتح الاسكندرية والفيوم ، ومن الروايات التي يذكرها جعفر الحاجب في سيرته قصة طريفة عن الخليفة الفاطمي الثاني للقائم بأمر الله عندما كان في طريقه إلى شمالي أفريقيا ، وكان شاباً طري العود مع عبيد الله المهدي يقول :

عندما وصلنا الى الصحراء في المغرب الأدنى،وكان الحر شديداً . . . في ذلك اليوم لم يعد باستطاعة القائم بأمر الله تحمل لفحات الحر الشديد ، فحدق بعيداً ، ورأى على مسافة بعض شجيرات خضراء ، فطلب من المهدي السمّاح له بالذهاب للاستظلال بظلهم والاستراحة قليلاً ، فسمح له وعندما وصل رأى بستانياً كهلاً يسقي بعض الخضراوات من نبع ماء شحيح يصب في بركة صغيرة فجلس القائم على حافة البركة ، وأدلى برجليه في الماء بقصد الابتراد من الحر ، وهنا اندفعت المياه من الينبوع بقوة حتى ملأت البركة بدقائق معدودة ، مما لم يألفه البستاني ، وعند ذلك هرع وجاء إلى القائم ، وقبل يديه ، وجلس أمامه متأملاً فرحاً وقال :

آمنت أنك الإمام المنتظر . . . فأجابه القائم . . . ومن أدراك ؟ . . قال :

سمعت من والدي ، ووالدي سمع من جدي بأن مياه هذا النبع ستظل شحيحة حتى يأتي من المشرق الإمام المنتظر فيضع رجليه فيها ، وعندئذٍ تتدفق مياهها ، وتجري علينا الأرزاق .

هذه القصة على بساطتها تعطينا الدليل على أن مؤلف سيرة

جعفر كان بدائياً ، وغير متصنع ، وكان مؤمناً بإمامة الفاطميين عن قناعة ويقين ، ولهذا فإن رواياته جاءت جميعها تطري مزاياهم ، وتتحدث عن صفاتهم .

وهناك مصدر تاريخي يرويه المسبحي ، وهي حكاية نقلها عن أبن محمد علي الداعي المقيم في مصر ، وهو الذي رافق المهدي أثناء وجوده في الديار المصرية عندما كان في طريقه إلى شمالي أفريقيا . قال :

كنت يوماً قائماً على الجسر بمصر مع الإمام المهدي إلى أن سمعت الجرس والنداء يقول :

ألا برئت الذمة من رجل آوى رجلاً صفته كذا وكذا ونعته كذا وكذا ووصف صفة المهدي ، فمن أتى به فله عشرة آلاف دينار حلالاً طيباً فقال المهدي :

يا أبا علي . . . المقام بعد هذا عجز . . . ثم ركب الجسر ، وسرتُ معه وسألته أن أرحل معه إلى بلاد المغرب فقال : على من أدع من لي ههنا ، فبكيت فأنشدني شعر أمرء القيس :

بكى صاحبي لمّا رأى الدرب دونه
وأيقن أنّا لاحقـــان بقيصرا

فقلتُ لهُ لا تبكي عينك إنمـــا
نحـاول ملكاً أو نموتُ فنعذرا

ويقص المؤرخ المسبحي قصة أخرى عن وصول عبيد الله المهدي إلى مصر ورحيله عنها في زي التجار وهذه القصة سمعها من أحفاد أبي علي الداعي المقيم الذي رافق المهدي أثناء إقامته في مصر فقال :

صلّى المهدي صلاة الصبح في الجامع العتيق بمصر تحت اللوح الأخضر ومعه أبو علي الداعي ، فلما خرجا من الباب ضرب رجل بيده على كم المهدي وقال له : قد حصلت لي عشرة آلاف دينار فقال له وكيف ذلك ؟ قال : لأنك الرجل المطلوب . . . فضحك المهدي ثم ضرب بيده على كتف الرجل وأخذ به إلى صدر الجامع وقال له :

عليك عهد الله ، وغليظ ميثاقه ، إذا جمعت بنيك وبين الرجل الذي تطلبه كان لي عليك ، ولصديقي هذا خمسة آلاف دينار ، ثم أخذه بيده وأتى به إلى حلقة قد اجتمع الناس فيها ، فأدخله من جانب ، وفارقها بسرعة من باب الجانب الآخر ، ولم يلتقيا بعد ذلك .

هذا ويجب أن لا ننسى أن الداعي « فيروز » المصري

كان موجهاً بالدعوة في الديار المصرية بعهد عبيد الله المهدي ، وكان من أجلّ الناس عند الفاطميين، ومن أعظمهم منزلة.
ومن دعاة المهدي والقائم بأمر الله أيضاً «أبو جعفر الجزري» وقد ذكر بأن المهدي قد وكل إليه أمر حريمه وأمواله عندما فرّ من «سلمية»،وتوفي هذا الداعي فيما بعد في رقّادة ، أمّا أبو علي الداعي المقيم فقد ذكره جعفر بن منصور اليمن في كتابه« الفترات والقرانات »بأنه كان يلقب أيضاً بالشيخ الأجل المفيد ، وهو أحد تلاميذ فيروز ، وزوج ابنته . وهذا الداعي أنجب ولداً هو محمد وكان قد بلغ بعهد المهدي والقائم والمنصور والمعز المكان الجليل .

ونعود إلى المسبحي الذي ورد ذكره ، فهو من مؤرخي ذلك العصر ، وعرف بأنه :

الأمير المختار عز الملك محمد بن أبي القاسم المسبحي الحرّاني الأصل المصري المولد والنشأة ، وكان قد عين أميراً على إقليمي البهنسا والقيس من أعمال صعيد مصر ، ثم ولي فيما بعد ديوان الترتيب ، وذكر أنه كان له مع الحاكم بأمر الله الفاطمي جلسات ومذاكرات . . . ترك مؤلفات عديدة وكان بالإضافة إلى كل ما ذكرناه شاعراً وأديباً له جولات واسعة في عالم الأدب والشعر وعلم الفلك .

وفي كتاب «استتار الإمام» ورد ذكر عدداً من الدعاة الذين عاشوا في دور الستر في «سلمية»، وبعضهم أدرك قيام الدولة الفاطمية وهم: أبو غفير، وأبو سلامة، وأبو الحسن الترمزي، وجياد الخثعمي، وأحمد بن الموصلي، وأبو محمد الكوفي وغيرهم.



الخليفة المحارب :

دخل رجل من قبيلة كتامة على الخليفة الفاطمي الثالث المنصور بالله ، وكان في إحدى قاعات قصره المنيف في مدينة المهدية يلاعب سلحفاة فقال :

يا مولاي . . . رأيت أبا يزيد الخارجي صاحب الحمار يضرب برمحه باب المدينة الغربي . . . فاستغرق المنصور في الضحك وقال :

أوَفعلها . . . ؟ . . . إنه لن يعود ثانية ، وسوف أعلّق جثته على الباب الغربي ، وفي نفس المكان الذي دقّ رمحه ، فاذهب وبشر كل من تراه عينك ، ثم عاد لملاعبة السلحفاة ، وكأن شيئاً لم يحدث .

مسكين المنصور . . . مات والده القائم بأمر الله ، وهو يرسل نظراته إليه . . . مات وآثار الحزن تطغي على قسمات وجهه . . . ذلك الوجه الذي لم يكن يوماً إلاّ ضاحكاً مستبشراً . .

مات وعيناه المعلقتان به تودان أن لا تتحولا عنه ، لكي تعبرا له عمّا يختلج في داخله من الأسى لهذا الفراق المبكر . . مات وهو يعلم أن دولته الفاطمية التي كرس حياته لها ، وسهر على بناء قواعدها وأمنها واستقرارها . . . أصبحت على شفير الهاوية ، فالثورات تهب في أرجائها ، والانتفاضات تعصف في بنيانها ، والعواصف والأنواء تكاد أو كادت تزعزع أركانها ، وتدك معالمها . . . مناطق عديدة انفصلت عنها ، واستقلّت ، وبلدان ومدن كبرى وصغرى انضمّت إلى الثائرين ، ورفعت أعلامهم . . . وقبائل عديدة استسلمت للثائرين دونما قتال خوفاً من السيوف المسلطة على الرقاب ، وبعد أن فقدت كل أمل بالحماية ، وإرسال الإمدادات ، والمعونات ، وبين هذا وذاك وبين عشية وضحاها أصبحت خزائن الدولة خالية خاوية ، فلا موارد ولا ضرائب تدفع للدولة ، والجيش المحارب بدأ يشكو ويتظلم من قلة المواد والمعاش ، وأنّى له أن يحصل على شيء من هذا وعاصمة الدولة الفاطمية تطوقها خيول المغيرين ، وتدق أبوابها رماح الثائرين ؟

كل هذه المشاهد والهواجس عرضت أمام القائم بأمر الله، وهو على سريره وفي ساعاته الأخيرة ، ومما زاد في آلامه

معرفته أن أمور الدولة ستؤول تلقائياً إلى ولده « المنصور بالله » الذي سمّاه على مشهد من الناس وليّاً للعهد : والمنصور لا يزال طري العود في سن الشباب ، لم تعركه الأيام ، ولم يسبق له أن تمرس على أساليب الحكم وإدارة شؤون الدولة ، أو عرف سياسة الرعية ، كما لم يتسنّ له أن خاض غمار الحروب ، أو قاد الجيوش أو خبر أسرار القتال . . . فماذا يستطيع أن يفعل هذا الشاب المدلّل أمام هذا الخضم الواسع من الأحداث ؟ وأنّى له الخروج من هذه الأزمات ، ومجابهة هذه القوى العنيدة الجبّارة التي انبثقت من كل جهة تشن الحروب ، وتعلن العصيان مهددة منذرة ؟

ووقف المنصور صامتاً أمام سرير والده البار ، يتطلع بعطف وحنان إلى الوجه الشاحب الذي أذهب المرض المفاجيء نضرته وبهاءه ، ولم يتمالك نفسه من ذرف دمعة لم يلبث أن مسحها حتى لا يراها والده ، فتضعف ثقته به ، وتزيد من حزنه .

أجل . . . شعر المنصور في تلك اللحظات أنه خسر أباً رحوماً ، وقلباً حنوناً أحبه حباً صادقاً ، وحنا عليه ، ورعاه ، وربّاه . . . وتمثّل له الماضي ، وساعات الأنس التي كان يقضيها بقربه بعيداً عن مشاغل الحروب ، ومؤتمرات السياسة ،

وأحاديث القبائل ومشاكل الدولة . . . فذلك الماضي قد تلاشى رويداً رويداً ، وتبدّد كما تبدد الرياح الغمام .

صفحة من الحياة طواها الدهر إلى الأبد ، وذكريات من العمر ستعود إلى ذهنه كلما خلا إلى نفسه لقراءتها واستعراضها... وعاد المنصور إلى قلبه يهدىء من اضطرابه ، وإلى دموعه يمنع انسكابها ، وبين هذا وذاك أخذ يردّد :

تلك مشيئة الله ، ولا مرد لقضائه . . . والحمد لله الذي جعل الموت حكماً من حكمته ، وأمراً جارياً من مشيئته ، واستأثر بالملكوت ، وأذلّ خلقه بالفناء . . . تبارك اسمه .

الخليفة الثالث :

اسمه « المنصور بالله » لقبه « أبو طاهر » وكان يحب أن ينادونه بإسماعيل تيمناً بجده الأكبر . ولد في القيروان سنة ٣٠٢هـ وليس في المهدية كما ذكر؛ تولّى الخلافة بعد وفاة والده القائم بأمر الله سنة ٣٣٤هـ وكان في سن الثانية والثلاثين ، مات في المنصورية سنة ٣٤١هـ ، فيكون قد عاش تسعة وثلاثين عاماً ، أمضى منها سبعة أعوام على مقعد الخلافة الفاطمية .

ذكر اسمه في التاريخ محاطاً بهالة من المدح والإطراء . . . وجميع المؤرخين اتفقوا على أنه :

كان شاباً وسيماً ، يمتلك القوة والرجولة ، والبراعة في القتال ، وعمليات الكر والفر ، طموحاً ، عالي الهمة ، عزيز النفس ، شعاره في الحياة الصدق والصراحة والوفاء والثقة بالنفس إلى جانب ثقافة واسعة ، وفصاحة ، وامتلاك اللغة

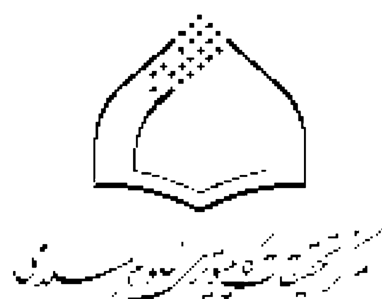
العربية الفصحى ، وذكر بأنه كان شاعراً رقيقاً وعالماً بالنجوم ، وخطيباً مفوهاً يرتجل الكلمات ، وعبارات الحماسة التي تقرّبه لقلوب الناس وخاصة للمحاربين ، فيسيطر على مشاعرهم ويمتلك محبتهم بفصاحته وبيانه ، وقوة منطقه ؟

كان يباشر الحروب بنفسه ، ويقود الجنود إلى ساحات القتال ، ويعطي الخطط الصائبة في الميادين ، ولم يعرف عنه أنه خسر معركة ، أو انهزم أمام فارس ، كما أنه لم يسمح لقائد من قواده أن يتقدم عليه ، أو يتسلم قيادة بوجوده .

لم يذكر التاريخ إلاّ القليل جداً عن طفولته وشبابه ، وكل مما عرف أنه عاش في كنف والده القائم بأمر الله ، وعاصر الأحداث ، والثورات التي اندلعت في أنحاء الدولة ، فكان كثيراً ما يلح على والده بالسماح له بالخروج لخوض المعارك ، ولكن الوالد البار كان يخاف عليه من الاندفاع الشديد ، ومن الحماس الذي لا يقف عند حد ، ولهذا وقف بوجه رغباته وتطلعاته .

كتم خبر وفاة والده القائم بأمر الله عن كل الناس مدة ثلاثة أعوام ، خوفاً من ردة فعل ، وحتى لا تؤثر الصدمة على أفراد الجيش الذين كانوا يحاربون في الأقاليم الثائرة ،

ومن المؤكد أنه دفن والده في فناء القصر سرّاً ، وظلّ هو معروفاً بولي العهد مدة الثلاث أعوام المذكورة أي حتى تمّ له القضاء على ثورة الخوارج .



موته :

مات الخليفة الفاطمي الثالث « المنصور بالله » في سن التاسعة والثلاثين أي سنة ٣٤١هـ ؛ وسبب موته ورد في جميع كتب التاريخ هكذا :

خرج الخليفة المنصور بالله للصيد مع بعض رفاقه ، فاشتد هطول الأمطار ، وهبّت عليهم رياح ثلجية عاتية ، بينما كانوا في منطقة جبلية عاتية وبعيدة عن العمران ، فلم يجدوا لهم ملجأ ومات أكثر من كان معه ، أما هو فقارع الرياح وعاد إلى المنصورية وهو منهوك القوى ، واهن الجسم ، وبدلاً من أن يركن إلى الراحة ، وتلقي العلاج ، دخل الحمّام وكان طبيبه « اسحاق بن سليمان » قد نهاه عن ذلك ، فلم يأخذ بنصيحته ، وكان أن اشتد عليه المرض ، وأصيب بالأرق ، فطلب طبيباً آخر فأعطاه طبيبه دواءً منوماً ، فكان هذا المنوم سبب موته .

هذا الخليفة المقاتل كما سمّاه التاريخ لم يمهله عمره سوى

سبعة أعوام قضاها خارج عاصمة بلاده ... قضاها في الساحات والميادين ... في السهول والجبال ... في الصحارى والحزون،وأخيراً مات فجأة قبل أن يستطيع تنفيذ ما كان يلور في رأسه من مشاريع ، وخاصة بعد أن قضى على الثورة الكبرى ... ثورة الخوارج ... التي دامت قرابة عشرين عاماً ونيف ... تلك الثورة التي لم تبق على شيء ، وباعتقادي لو ان الأجل منحه فسحة من العمر إذن لاستطاع أن يحقق للدولة الفاطمية ما لم يستطع أحد من السابقين ، أو اللاحقين تحقيقه ، وعلى الأخص في مجالات العمران ، والازدهار ، والهدوء ، وتنظيم الإدارات والجيوش ... ولكن لربك في ذلك شأن وهو أعلم .

الدولة الفاطمية
بعد القائم بامر الله

ذكرنا في الكتاب الثاني من الموسوعة ، الكثير عن ثورة أبي يزيد مخلّد بن كيداد الخارجي التي اندلعت في عهد الخليفة الثاني القائم بأمر الله ، وقد ذكرنا كيف دق هذا الثائر العنيد الجبّار أبواب عاصمة الدولة الفاطمية « المهدية » وكيف أن القائم وجيوشه انتابهم اليأس والوهن بحيث لم يعد لهم القدرة على الوقوف بوجه هذا التيار الخارجي الجارف الذي اندفع قوياً يحرق كل شيء أمامه ، ولولا عملية إنقاذ لجأ إليها القائم بأمر الله في نهاية المطاف إذن لانهارت دولته ، وذهبت طعماً لسيوف الثائر الخارجي وجيوشه المغيرة ، وهذه العملية هي نداء الاستغاثة الذي أرسله للصنهاجيين والكتاميين ، ودعوتهما إلى تناسي ثاراتهما وأحقادهما والمبادرة السريعة إلى عقد رايات الصلح ، والسير معاً لإنقاذ الدولة قبل فوات الأوان ، فاستجاب

« زيري بن مناد » زعيم صنهاجة للنداء ، ودعا قبيلة كتامة إلى عقد الصلح وتلبية نداء الخليفة ، ثم اندفع على رأس جيوشه إلى المهدية ، وهناك دخل في معارك عديدة مع أبي يزيد ولكن تلك المعارك كانت سجالاً ، وبين مد وجزر ، وعلى العموم فإنها لم تحقق أي نصر ساحق لأي من الفريقين ، ولكنها أنقذت الدولة الفاطمية من السقوط ، ولولا هذا التدبير الأخير من قبل القائم لانتهى أمر العاصمة المهدية التي فرّ جميع سكانها إلاّ حامية اختارها الخليفة القائم ، وجعلها تحت قيادته للدفاع عن عاصمة دولته .

ومهما يكن من أمر فإن ثورة الخوارج هذه لم تكن كباقي الثورات الأخرى التي اندلعت في شمالي أفريقيا . . . انها الثورة التي كانت تهب مرة في جهة ، ثم تخمد لتعود إلى الظهور في منطقة أخرى وهي أشد عنفاً واندفاعاً . . . والحقيقة فهذه الثورة لم يألفها أهل تلك البلاد ، لأنهـا من الغرابة بمكان ، فتارة تنبعث في أطراف المغرب الأقصى ، ثم لا تلبث أن تنطفيء لتهب من جديد في مناطق كتامة ، وصنهاجة . . . في الصحراء . . . في القيروان أو في رقاده . . . أو في سوسة ، أو على أبوابـة المهدية وأخيراً في الجبال حيث القلاع والحصون والمعاقل وهكذا دواليك ، وكل هذا أوجد جواً مكفهراً مليئاً

بالتشابك والتعقيد بالنسبة للخليفة القائم وللقواد الذين يحاربون تحت رايته ، ناهيك عن أن الأدارسة في المغرب الأقصى كانت أحوالهم غير مستقرة ، وغير مطمئنة ، فالبلاد الخاضعة لهم يتقاسمها عدد من الأمراء منهم من يوالي الفاطميين مرة ثم يعود إلى أحضان الأمويين ، فضلاً عن تحركات الزناتيين ، وثورتهم المعادية التي اندلعت بقيادة « محمد بن خزر » وهي في الحقيقة كانت تشكل سنداً أو رديفاً لثورة الخوارج ودرعاً لها ، وأهم من كل ما ذكرناه هو أن ذلك الوضع كان يحتم على عددٍ كبير من جنود الكتاميين والصنهاجيين البقاء في المدن الرئيسية للحفاظ عليها من الغارات والهجمات ، ولعلّ كل هذا كان من الخطط المدبرة التي سهر عليها ونفذها بدقة وعناية الأمويون في الأندلس .

وجملة القول كان شمالي أفريقيا ، أو البلاد التي تحكمها الدولة الفاطمية في ذلك العهد كالأتون تغلي مراجله ، فليس فيها منطقة أو جهة تنعم بالهدوء والاستقرار حتى المهدية عاصمة الدولة كانت واقعة تحت الحصار ، ومهددة بالسقوط . . . ويذكر التاريخ : أن القائم بأمر الله مات وعاصمة دولته مطوقة ، وإذا لم يكن الأمر كما ذكر ، فعلى الأقل كانت جيوش أبو يزيد على مقربة منها ، وكان بالإضافة إلى ذلك

بإمكان أبو يزيد احتلالها بسهولة ولكن حتى الآن لم يذكر التاريخ سبباً لتقاعسه ، وقد اعتبر الخبراء ذلك التقاعس خطأ عسكرياً وقع فيه وارتكبه هذا الثائر العنيد .

ومما يجب أن يذكر بان ذلك حرّك الخليفة المنصور بالله على الخروج بنفسه لمباشرة القتال حاملا صفة « ولي العهد » معلناً بأن خروجه وتسلمه شؤون القيادة تمّ بأمر الخليفة القائم بأمر الله ، فعاهد الله والشعب ألاّ يعود إلى عاصمة بلاده المهدية إلاّ بعد أن يستأصل الداء العضال ، والمعروف عنه انه اختار لمعاونته اقوى المحاربين والقواد من كتامة وصنهاجة ، فنظّمهم في ألوية ، وكتائب ، وقسّمهم إلى فرق ، وأقام عليهم القواد الشباب المتحمسين الذين يتحلون بالمعنوية والإيمان والثقة ، وكان إقدامه على تسلم القيادة باعثاً لإذكاء الحماسة في صفوف الجند الذين أكبروا شجاعته وإقدامه ، ومن جهة ثانية فقد ترك لزيري بن مناد مهمة التصادي لحرب الزناتيين ، وإطفاء لهيب ثورتهم الكبرى في المغرب الأقصى ، وهكذا انقسم الجيش الفاطمي الواحد إلى جيشين ، وبدأت العمليات العسكرية على نطاق واسع وخاصة لدى جيش المنصور الذي طبق وأوجد الأساليب الحديثة في العمليات العسكرية ، وحض على النظام ، والطاعة ، وتنفيذ الخطط الحربية بدقة ، كما

منع الفوضى ، والاستقلال بالرأي لدى القوّاد ، وحارب الأساليب العشائرية القديمة التي كانت سائدة ، والتي كانت سبب تراجع الجيوش الفاطمية في بعض المعارك ، فالمنصور المحارب الجريء أدرك منذ اللحظة الأولى أن الجيوش الفاطمية لا يمكن لها تحقيق أي انتصار ، او احراز أي تقدم في الميادين إلاّ بعد أن تنزع عن الجيش الصفات القبلية ، وأساليب القتال القديمة . . . ومن هنا انطلق إلى تنظيم جيشه وتقسيمه إلى كتائب للهجوم ، وأخرى للدفاع ، وبعضها للاستطلاع ، واضعاً نصب عينيه نظام الجيوش المتحضرة الحديثة المحاربة ، وكل هذا كان يقابله جيش للعدو تسيطر عليه روح الفوضى والعشائرية ، والإقليمية ، فلا خطط عسكرية محكمة ، ولا نظام ، ولا طاعة ، لا كتائب ، ولا ألوية ، ولا قواد مسؤولين ، بل جيش كثيف من عناصر مختلفة يؤلف بينها حب الغزو والنهب والاستيلاء على المغانم والأسلاب . . . جيش يأتمر بأمر رجل واحد مهمته السيطرة على البلدان ، وتسلّم الزعامة ، وقتل الآمنين ، والسرقة والنهب ، والعيث فساداً في كل مكان ، وهذا ما سهّل اندحاره في المعارك ، وتبديد شمله .

المعركة الاولى

كان أبا يزيد الخارجي قد اتخذ من مدينة « القيروان » عاصمة لدولته ، فجعلها قاعدة حربية أو ميداناً للتعبئة والتدريب بغير منها على المدن والقرى الأخرى في المغرب الأوسط ، وسبق أن ذكرنا أنه احتلها في عهد الخليفة القائم بأمر الله . أما مكان إقامته فكان في رقّادة التي تبعد عن القيروان أربعة أميال ، ولعله استطاب الإقامة في هذه البلدة الصغيرة ، الجميلة ذات البساتين النضرة ، والمياه العذبة ، والهواء العليل ، وقد ذكر بأنه ليس هنالك أعدل من مناخها ولا أطيب تربة منها ، أما جيوشه الجرّارة فقد أعدّ لها خياماً وسرادق خارج أسوار المدينة وذلك لصيانتها من الوقوع تحت الحصار ، وكان أبا يزيد وهو في مقره يعتبر بأن الدولة الفاطمية أصبحت في حكم المنتهية ، وانه سوف لا يقوم لها قائمة بعد الان ، وكان استخفافه بارزاً عندما علم باستلام المنصور بالله قيادة الجيوش الفاطمية ، فشك في نجاحه في المكان الذي قتل فيه والده ، وهكذا استسلم

للراحة وللأمان ، واكتفى بإرسال الإمدادات إلى الزناتيين ، وإقامة الاتصال بهم ، أو توحيد الأهداف ومرامي القتال . وقد ذكرنا أن الزناتيين كانوا يقاتلون « زيري بن مناد » أمير صنهاجة في أطراف المغرب الأقصى ، ولم يكن يدور بخلده أن المنصور بالله قد أعدّ حملة كبرى من فرسان كتامة وصنهاجة للانقضاض عليه ، وأخذه على حين غرّة .

وكنّا ذكرنا أن المنصور أدخل في حسابه وجود هذا الجيش الكثيف الجرّار المخيم في ضواحي القيروان ، فإن هزيمة مثل هذا الجيش قد لا تتم بسرعة إلاّ إذا فوجيء بجيش منظم يقوم بعملية حربية خاطفة مفاجأة تهدد كيانه ، وتسد عليه منافذ الهرب ، أو التأهب للمعركة . وبالفعل ظل المنصور مدة تقارب من الثلاثة أشهر ، وهو يعد هذا الجيش ويرتبه ويمرنه على أساليب القتال الحديثة ، وعلى الانقضاض دونما رحمة ، وعندما تمّ له ذلك كتم أمر خطته حتى عن المقربين وانطلق من المهدية باتجاه القيروان في وقت غروب الشمس ، وعند آخر الليل وصلت طلائع جيشه إلى مشارف المدينة ، فأعطى أوامره بأن ينال الجنود قسطاً من الراحة ، وأن يتزودوا بكل ما يحتاجونه استعداداً لمعركة تدوم طيلة النهار ، ثم أعطى أوامره لهذا الجيش بالانقضاض على جيش أبي يزيد ، وكان

هذا الجيش يستسلم إلى النوم غير حاسب أي حساب لما تخبئه له الأيام . . . كان يحلم بأن النصر قد تحقق أو كاد ، فلم يشعر إلاّ والخيول المغيرة تنقض على المخيمات لتدوس بحوافرها النائمين ، واشتعلت النيران بالمخيمات ، وبينما كان جنود الخوارج ينفضون عن جفونهم غبار الرقاد، وينهضون لإطفاء النيران ، حتى أن بعضهم لم يتمكن من النهوض أو الخروج للوقوف بوجه الجيوش التي تدك معاقلهم . . . أما أبو يزيد فكان في رقادة يغط في نومه غير حاسب أي حساب لمثل هذه المفاجأة الغريبة ؛ فالأخبار كانت تأتي إليه بأن المنصور في المهدية بقرب والده القائم ، وأنهما عاجزان عن القيام بأي عمل عسكري خاصة وليس لديهما سوى حامية صغيرة أعداها للدفاع عن المدينة .

أجل . . . انقضّت جيوش المنصور على خيام جيش أبي يزيد المنتشرة في سهول القيروان . . . انقضّت كالعقبان ، وكالبرق الخاطف ؛ فداست الخيول المغيرة بحوافرها الجثث التي كان أكثرها على فراش النوم ؛ وتلاعبت السيوف في تلك الرؤوس المستسلمة للراحة وللاطمئنان ، وبعضهم ذهب طعماً للنيران ، بينما الفرق الأخرى من جيش المنصور رابطت في الأطراف ، وسدّت منافذ الهرب ، وفي ظرف ساعة

أو ساعتين تحولت تلك السهول إلى بركة من دماء الخوارج ، فكنت لا تسمع سوى أنين الجرحى ، ولا ترى إلاّ الجثث والرؤوس ملقاة على الأرض . . . وخرج أبو يزيد من مخبأه مع حامية رقّادة ، وقصده إنقاذ الموقف ، والتصدّي للمغيرين ، ولكن المنصور أعدّ قوة خصصها لملاقاته على أبواب المدينة الجميلة . ولمّا رأى أن زمام الأمر قد أفلت من يده ، أسلم ساقيه للريح ، وولّى هارباً مع بعض قواده، وأركان حربه ، وجعل وجهة سيره « سوسة » المدينة الواقعة على ساحل البحر الأبيض المتوسط ، وكان قد احتلها ورفع أعلامه على شرفات مبانيها .

هذه المعركة التي انجلت قرب الظهيرة تحدث عنها المؤرخون وقد وصفها بعضهم بأنها من المعارك الخالدة في تاريخ المغرب ، فهي التي فتحت صفحة من اليأس والحروب في حياة أبي يزيد ، وجعلته في حالة من القلق والارتباك ، لا سيما وأن ضحايا جنوده في معركة القيروان قدر عددها بما يقارب من الأربعين ألفاً .

أما المنصور فإنه دخل القيروان ورقّادة ، وأمّن أهلهما ، وقبض على كل أعوان أبي يزيد، وأقام يعيد تنظيم جيوشه ، ويوزع الأسلحة والخيول والعتاد التي غنمها على الجيش الظافر . . . استعداداً للمعارك المقبلة .

أصداء الانتصارات

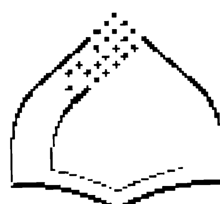
عمّت أخبار معركة القيروان عموم أنحاء أفريقيا الشمالية بسرعة ، وتناقل الناس أخبار الانتصار السريع الذي حققه المنصور ، فعمّ الفرح والغبطة أوساط كتامة وصنهاجة ، وبالعكس أوجد حالة من الهلع والخوف لدى الزناتيين ، ومن يسير بركابهم ، بينما هرع الفريق المتردد الذي اتخذ خطة الحياد من الأحداث إلى الانضمام إلى الخليفة المنصور ، وإعلان الولاء والطاعة له ، أما « زيري بن مناد » زعيم صنهاجة وقائدها ، وكنا ذكرنا أنه يخوض حرباً مريرة ضد الزناتيين ومن يعاونهم من الأدارسة في المغرب الأقصى ، فقد تلقى أخبار المعركة بسرور بالغ مما بعث فيه المعنويات ، والشجاعة ، والأمل ، والرجاء بالانتصار الأخير .

وبالنسبة للحرب بين صنهاجة وزناتة فإنها كانت حرب سجال طويلة الأمد أو قل حرب ما يسمى بالكر والفر ، والدليل

أنه لم يستطع أي من الفريقين تحقيق أي نصر حاسم مضافاً إلى كل ذلك أنها الحرب التي أنهكت خزانة الدولتين الفاطمية والأموية ، وأوردتهما مورد الإفلاس بسبب ما استنزفته من اموال ونفقات .

ومهما يكن من أمر ، فإن بلاد الأدارسة في المغرب الأقصى ، كانت منقسمة على نفسها ويحكمها أفراد من هذه الأسرة تخضع أكثرهم لنفوذ الأيوبيين ، بعد أن ساءت أحوال الدولة الفاطمية ، ولم يكن « زيري بن مناد » بقادر على التحكم فيهم ، أو فرض سيطرته عليهم لأنهم كانوا يعيشون حياة غير مستقرة تخضع للظروف وللمفاجئات ،أو بلغة أصح لميزان السعود والنحوس ، فهم تارة بين أيدي الفاطميين يرفعون أعلامهم ، وينادون باسمهم ؛ وتارة تحت سلطة الأمويين يرفعون شعاراتهم ، ويتلقون المساعـــدات منهم ولكن واقع الأحوال يدل على أن ذلك الوضع لم يكن مقدراً له الاستمرار طويلاً خاصة ، وأن ظهور المنصور بهذه القوة العسكرية الجبّارة فجأةً قلب الموازين،وأدخل الرعب والرهبة إلى قلوب الأدارسة ، وجعلهم يحسبون للمستقبل ولعلاقاتهم مع الفاطميين ألف حساب ، وليس غريباً بعد ذلك أن يبادر بعضهم إلى الاتصال سراً بالفاطميين ، وإعلان الندم ، والمطالبة بالإسراع

بتخليصهم من حالتهم التي يعيشونها ، مضافاً إلى تعبيرهم عن البقاء على الطاعة والولاء ، والاستعداد للأخذ بمبدأ الحرب والمساعدة والقتال .



تدابير منصورية
في صقلية

هذه الجزيرة الكبرى المهمة ، التي عرفت في التاريخ بأنها إحدى قواعد الأمبراطورية الرومانية ، والتي اشتهرت بأنها ظلّت تحت حكم الرومان حتّى فتحها الأغالبة سنة٢١٢هـ على يد «أسد بن الفرات» قاضي القيروان ، وذلك بعهد المأمون العباسي ، ويذكر التاريخ أن أسداً فتحها بجيش قدر عدده بتسعمائة فارس ، وعشرة آلاف رجل . . . هذه الجزيرة التي تعتبر أهم جزر البحر الأبيض المتوسط ، والتي وصفت بكثرة خيراتها ومناخها وجمالها وبعدد مدنها الثلاثة والعشرون ، وبحصونها ، وقلاعها ، وجبالها ، وبعاصمتها «بلو» .

هذه الجزيرة بعد وفاة الخليفة الفاطمي الثاني القائم بأمر الله عادت لتنفض عن جفونها غبار الهدوء والاستقرار ، فالعناصر والطوائف المختلفة فيها أخذت تتأهب ، وتعد نفسها للثورة ،

وخاصة بعد الأنباء التي تسربت إلى مجتمعاتها عن ضعف الدولة الفاطمية ، وقيام الثورات العنيفة في جميع أنحاء الدولة ، ولم تشغل الحروب العنيفة المنصور بالله عن التفكير بصقلية ، وإعطائها ما تستحقه من اهتمام ، وكنا ذكرنا في الجزئين السابقين من الموسوعة بأن الخليفة الأول عبيد الله المهدي قد سنّ لهذه الجزيرة ذات الأهمية الحربية نظاماً يقضي بأن يكون إلى جانب واليها ، وبصورة دائمة جيش احتلال قوي يدفع الأخطار عند اللزوم ، ويثبت دعائم الأمن ، ويقضي على المؤامرات ، والحركات الثورية ، أي أن يكون هذا الجيش تحت إمرة الوالي يوجهه أينما شاء ، وإلى أي مكان يشعر أن فيه أخطاراً تهدده .

وعلم المنصور بكل ما يجري في الجزيرة بل علم أن الأيادي الأموية امتدت إلى القاعدة البحرية الفاطمية تبذل الأموال ، وتغري المواطنين بإعلان الثورة وطلب الاستقلال ، من هنا كان لا بد للخليفة المسؤول من اتخاذ تدابير جديدة ، وكان أن عيّن « الحسين بن علي الكلبي » حاكماً للجزيرة ، وأميراً للبحر وللأسطول ، وزوّده بكافة الصلاحيات ، والإمكانيات ، وهذا القائد الكتامي المجرب المخلص للفاطميين ، كان إلى جانب إخلاصه قائداً بحرياً عظيماً مدرباً ، وخبيراً بحروب

البحر ، وبقيادة الأساطيل ، فجاء إلى الجزيرة ، واتخذ مكانه فيها بقوة ، وكان بالإضافة إلى كل ما ذكرناه قد استحصل من المنصور على أمر بمهاجمة الجزء الغربي من البلدان الرومانية الواقعة على شواطىء البحر الأبيض المتوسط .

ومن الجدير بالذكر أن الحسن ما كاد يتسلم مركزه في القاعدة المذكورة حتى اندلع نزاعاً طائفياً دينياً في الجزيرة بين المسلمين والمسيحيين ، وتفاقم النزاع إلى اشتباكات مسلحة بين الطرفين كان يسقط من جرائها أعداداً كثيرة من الضحايا ، ولمّا كان المسلمون قد سيطروا على الموقف فإن المسيحيين اغتنموا الفرصة ، فأرسلوا وفداً من رجال الدين إلى روما والقسطنطينية ، فاتصلوا بأباطرة الدولة البيزنطية ، وأطلعوهم على ما يلقونه ، ويتعرضون إليه من الضغط الإسلامي ، كما أنهم ذكروا لهم أن الحاكم الفاطمي متحيز للمسلمين ، وأن جنوده يعاونون الأهالي المسلمين، ويتحيزون لهم ، وبالفعل استجاب الأمبراطور قسطنطين الثامن لنداء رجال الدين ، وأمر بتجهيز حملة بحرية قوية ، والذهاب إلى الجزيرة باسم حماية المسيحيين ، فتصدّى لها الكلبي ، ودارت معركة بحرية على الشواطىء بين الأسطولين ، تمكن في نهايتها الكلبي من إحراز النصر . وإغراق أكثر السفن الرومانية قبل أن تتمكن

من إنزال جيوشها على الشاطىء ، وهكذا أرغم الأمبراطور على طلب الصلح ، فقبل الحسن ، ووقعت معاهدة لم تستمر طويلاً ، وقد علم بأن الدولة الفاطمية غنمت مبالغ كبرى من الأموال فدية للأسرى الروم الذين وقعوا في قبضة الفاطميين مما كان له أكبر الفوائد .

ومن جهة ثانية فإن الكلبي لم يتوقف عن حرب الروم خاصة بعد أن نقضوا المعاهدة . فكان يوجه أسطوله من حين لآخر إلى الإغارة على مدن جنوب إيطاليا ، وكان يسير من نصر إلى نصر خاصة في معاركه مع أباطرة الدولة الرومانية الشرقية الذين اشتركوا أيضاً بالمعارك انتصاراً لإخوانهم الغربيين ، وفي ذلك الوقت أيضاً تمكن الحسن من إخضاع « قلورية » وإعادتها إلى الحكم الفاطمي .

ومهما يكن من أمر فإن خطة الأمبراطور الثامن قسطنطين كانت تهدف إلى تحقيق انتصارات في المغرب تعادل الانتصارات التي حققها في المشرق على العباسيين والحمدانيين ، ولكنه اصطدم بوجود الأسطول الفاطمي الكبير الذي كان يقوده الحسن الكلبي ، وسهره ، ويقظته ، واستعداده ، وخبرته بفنون القتال البحري ، وكل هذا أحبط مساعيه ، وجعله في شك من تحقيق أي انتصار في صقلية .

وجملة القول فإن تعيين الكلبي حاكماً على صقلية كان اختياراً موفقاً بحيث اقترنت انتصاراته بانتصارات المنصور ، وجعلت الدولة الفاطمية تستعيد سمعتها ، وقوتها ، ومعنوياتها في عهد المنصور ، وفي عهد ولده الخليفة الرابع المعز لدين الله .



المنصور والاحداث
العائلية

مصادر تاريخية عديدة ذكرت بأن المنصور بالله قبل خروجه من المهدية لقتال الخوارج بث العيون والأرصاد ، وأوكل إليهم مراقبة تحركات أبناء عمه « عبيد الله المهدي » الخليفة الفاطمي الأول ، وهذا يقوي الدليل على أن أحفاد المهدي كانوا يعتقدون بأن الخلافة قد اغتصبت منهم بعد وفاة والدهم عبيد الله ، وأنهم أحق بها من القائم وأولاده ، لهذا كانت تحركاتهم ترتدي طابع تأليب الناس على المنصور ، واتهام والده القائم بأمر الله بأنه اغتصب حقهم . . . كل هذا يؤكد بأن المنصور كان يخوض حرباً داخلية أشد وأدهى من حرب الخوارج . . . إنها الحرب بين أولاد العمومة ، أو أبناء الأسرة الواحدة التي تضافرت جميع القوى على التصدي لها ، وتعكير صفو حياتها ، ومهما يكن من أمر فإن مثل هذه

الوقائع التاريخية تعطي الدليل على ما قد سبق وذكرناه في كتابنا الأول عن المهدي ، واعتباره حسب رأي بعض الجهات وصياً على القائم ومهمته تسليم الخلافة لصاحبها الشرعي وعدم حصرها في أولاده .



معارك سوسة

ذكر التاريخ : بأن معركة سوسة ، أو بلغة أصح معارك سوسة بين الخليفة المنصور بالله ، وبين الخوارج كانت طويلة الأمد ، ومريرة ، وقاسية ، وأنهـــا دامت أكثر من عـــام بين كر وفر ، وخمود وهبوب ، فهذه المعارك كانت تهمد وتهب ، ثم تتجدد ، وكلما حاول المنصور حسم الموقف جاءت قوى جديدة من الأقاليم الأخرى لتحارب الفاطميين ، وتشارك في الواجب الديني المقدس الذي يدعو إليه أبو يزيد ، ولم يستطع المنصور بالرغم من تفوقه في ميادين القتال ، وسيطرته على الأجواء في كل معركة يخوضها أن يضع حداً نهائياً للأساليب الثعلبية التي كان يتبعها خصمه بالتراجع حيناً ، والجلوس وراء الأسوار حيناً آخر ، وخاصة عندما يرى تفوق خصمه عليه ، ودلائل خسارته للمعركة ، وبعد هذا يعود من جديد إلى الهجوم بطريقة أعنف ، وأخيراً ضاق صدر المنصور ، وأدرك أن الأمر طال ، وأن البقاء على هذا الوضع معناه الدمار

بعينه ، فهذه المعارك الاستنزافية من شأنها أن تحطم الآمال والرجاء ، وتشغل الدولة الفاطمية فترة طويلة بمعارك جانبية تهدر قواها وإمكانياتها ، ثم تجعل الجيش في خاتمة المطاف في حالة من الملل واليأس ، ومن جهة ثانية فإن أبا يزيد شعر هو أيضاً بأن التذمر قد بدأ يتسرب إلى صفوف قواده وجنوده من هذه الحالة التي هي ليست حرباً ولا سلماً ، وهذا ما دعاه إلى وضع خطة حربية جديدة ضمنها خدعة اعتقد بأنها تكفل له النصر الحاسم ، فقسّم جيشه إلى قسمين : قسم أوكل إليه مباغتة جيش المنصور بهجمة ثأر كما جرى في القيروان ، وقسم ثانٍ أمره بالزحف إلى القيروان واقتحامها ، وقطع الطريق على المنصور ، وبهذا يكون قد وضعه في كمين لا يستطيع الخروج منه ، أو جعله ضمن كمّاشة تطبق عليه ثم تضيق رويداً رويداً بحيث لا يستطيع الإفلات ، وبعد أن أعدّ للأمر عدته أمر جيشه بالهجوم على حين غرة ، ولكن المنصور المتيقظ ، والقائد الذي أعدّ لكل أمر عدته استقبل هذا الجيش المندفع بالرماح وبالسيوف ، وفي خلال ساعات جعله يتخذ خطة الدفاع بدل الهجوم . . . وانتهى به الأمر أخيراً إلى التفتيش عن طريق للفرار ، وللعودة إلى مدينة سوسة ، وفاته أن المنصور في تلك اللحظات قد أمر أسطوله المرابط في المهدية

بالتوجه إلى سوسة وإنزال جيوش الصقالبة فيها واحتلالها ، وهكذا لم يجد جنوده في آخر المطاف بدأ من الهرب باتجاه البراري والقفار ، أما الجيش الذاهب إلى القيروان فقد تلقته حراب المنصور وأعملت فيه طعناً وذبحاً وكان في تلك الساعات يشكو من التعب ومشاق السفر وطول المسافة ، ويذكر التاريخ أن هذا الجيش لم يستطع الصمود وذهب أكثره ضحية الجهل بالخطط الحربية ، أمّا الباقي فقد ركن إلى الفرار مفضلاً الذل والعار على الموت في الميادين .

وفي نهاية الشوط لم يعرف أي شيء عن مصير أبو يزيد ، وكلما ذكر أنه هرب مع من سلم من رجاله ، واتخذ طريق الجبال ، ولكن الخليفة المنصور وكان يدرك أن بقاء أبو يزيد حيّاً معناه بقاء الأفعى تسرح وتمرح ثم تعود إلى الظهور عند ظهور الفرصة السانحة . ولهذا قرر اللحاق به بعد أن يعيد تنظيم جيوشه . وبعد أن يخلع على المدن والقرى التي عانت من الحروب الدمار والهجرة حياتها واستقرارها وهدوءها ، وفي الحقيقة لم يكن راضياً تمام الرضى عن كل ما حققه ما دام أبا يزيد حياً يرزق .

ومهما يكن من أمر فإن معارك سوسة فتحت صفحة ناصعة في تاريخ الحروب وقربت محبة المنصور إلى قلوب

الجيش والشعب ، وجعلت أكثر الناس تعتقد بأنها بداية النهاية بالنسبة لأبي يزيد الثائر العنيد الذي شغل الدولة الفاطمية قرابة عشرين عاماً ، فحرمها من الهدوء والاستقرار ، وهددها بالدمار وكاد يقضي عليها لو خطيئاته العسكرية التي ارتكبها ولولا مظالم كان جيشه يقترفها في الأقاليم ، من تعديات على الآمنين ، وسلبهم أموالهم ، ومتاعهم وكل هــذا جعله في نهاية المطاف يلاقي مصيره الأسود .



حرب القلاع والحصون

أجل . . . لقد نجح المنصور في دك قوى الخوارج ، وتمزيق قواهم إرباً إرباً في معركة سوسة الأخيرة ، فدبّ الذعر في باقي القوات الثائرة التي كانت تتمركز في بعض المناطق والمدن ، وركنت إلى الفرار ملتحقة بأبي يزيد ، وبعضها قد تفرّق عنه مؤثراً الفرار على حرب غير مأمونة النتائج . . . أمّا أبو يزيد فارتدّ مع نفر من صحبه كما ذكرنا إلى شعب الجبال حيث المعاقل والحصون والقلاع : فبسط سلطانه ، وسيطرته عليها ، وهي الجبال الموازية للساحل أو الجبال الداخلية التي تمتد حتى منطقة النجود العليا ، بحيث تبدو أكثر ارتفاعاً ، وتعقيداً ، وتكثر على مقربة منها الأراضي الصخرية الجرداء ، والكثبان الرملية ، والأودية الجافة ، والهضاب الصخرية العسيرة المسالك .

*

لقد التجأ أبو يزيد إلى قلب تلك المنطقة المنعزلة ، وأقام في

إحدى القلاع الحصينة التي عرفت فيما بعد بقلعة «أبي يزيد» او قلعة كتامة فكان يصدر منها أوامره ، ويعبيء قواته ويرسل جيوشه لقطع الطرقات ،والقيام بأعمال التخريب ، وكأن شيئاً لم يحدث له ، وكل هذا حفز المنصور على اللحاق به إلى تلك المنطقة والبدء بأعمال الحرب المعروفة بحرب القلاع والحصون .

أجل . . . من قلعة إلى قلعة ، ومن حصن إلى حصن . . . من جبل الى وادي ، بل من قمة إلى قمة ، تلك هي الحرب الجديدة التي فرضت على المنصور ، وأراد الأعداء له أن يخوضها أخيراً بعد تلك الانتصارات الحاسمة ، والحقيقة فإنها حرباً غريبة لم يألفها من قبل أحد من القواد ، فكم هي شاقة وعسيرة مهاجمة الحصون والقلاع المحصنة ذات الباب الواحد المغلق ، والأسوار المحصنة المعدة للدفاع ، ولمرابطة المحاربين ، بحيث تتحكم سهامهم بصدور المغيرين والفاتحين في عصر لم تكن فيه متوفرة آلات التدمير ، ووسائل خرق الأسوار ، فأبو يزيد وزّع قواته التي كتب لها النجاة في معارك سوسه والقيروان وراء الحصون والقلاع والمعاقل الواقعة في مناطق كتامة ، وأمرها بالمرابطة والدفاع حتى الموت . أمّا المنصور فبعد دراسة شاملة للمنطقة وجد أن القضاء على أبي يزيد سوف لا يتم بسرعة ، وأنه لا بد من استعمال النفس الطويل ، والصبر ،

وخرج أخيراً بنتيجة تقضي بفرض حصار محكم على هذه القلاع ، ومنع وصول أية إمدادات غذائية لها ، مما يضطر المرابطين فيها أخيراً إلى الاستسلام دونما قتال الواحدة بعد الأخرى، وكل هذا كلّف المنصور الجهود الكبيرة ، والوقت الطويل ، وقيل ان خطته تلك استغرق تنفيذها ستة اشهر .



المعركة الحاسمة
ومقتل أبا يزيد

وهكذا أخذت القلاع والحصون تستسلم الواحدة بعد الأخرى ، وبعضهم نزل عن الأسوار وخاض حرباً خاسرة ، وبعد أن تمّ للمنصور إخضاع كافة القلاع زحف على رأس قوة هجومية إلى قلعة أبي يزيد فطوقها وأنذر ابا يزيد بالاستسلام أو الخروج للقتال .

ولكن أبو يزيد ردّ على الإنذار بالاعتصام أولاً ، وأخيراً بالنزول مع رجاله إلى ساحة القتال ، وهو في حالة من اليأس وفقدان الأمل ، فتلقاه المنصور ، ودارت بينهما رحى معركة جرح في نهايتها أبو يزيد جرحاً بليغاً في كتفه ، فترك الميدان ، وأركن إلى الفرار باتجاه الصحراء ، فلم يشأ المنصور أن يتبعه جرياً على عادته بأن لا يتبع مهزوماً ، وتركه حتى ثاني يوم حيث أرسل بعض رجاله وراءه ، فتتبعوه في

الصحراء وقبضوا عليه مختبئاً في أحدى المغاور ، وبعد أن أحضروه إلى المنصور ، أمر بتقييده بالحديد ، وعاد به إلى المهدية تنفيذاً لقسمه بأن لا يعود إليها إلاّ ومعه رأس الرجل الذي أضرم نار الفتنة في كل جهة من أرجاء الدولة الفاطمية ، وكاد يزعزع أركانها ، ويدمّر قواها ومواردها .

وأخيراً : اتفق المؤرخون على أن المنصور بالله أمر بإعدام أبا يزيد ثم سلخوه ، وحشوا جلده قطناً ، وصلبوه لمدة عام على باب المهدية الجنوبي ، وفي المكان الذي دقه برمحه ، وكان ذلك سنة ٣٣٩هـ .

وهكذا عاد المنصور الظافر إلى قاعدة ملكه ليعلن للناس عن وفاة والده القائم بأمر الله ، ثم ينتقل بعد ذلك إلى «المنصورية» وهي العاصمة الجديدة التي أمر ببنائها ، واستعاض بها عن المهدية ، ولكن كل هذا لم يكن ليثنيه عن التفكير في المغرب الأقصى خاصة بعد أن تصاعد النفوذ الأموي في أرجائه ، وأخذ يزداد يوماً بعد يوم ، فاحتلال «حليليت» وبعدها «سبتة» معناه استملاك المفتاح لمنطقة المجاز ، أو مركز الانطلاق الرئيسي لبلدان أخرى .

ولا بد من القول بأنه في ذلك الوقت كان أبناء البوري ابن موسى بن العافية قد ظفروا بميسور القائد ، وبعبد الله بن

بكّار اليغرني وكلاهما من القواد الفاطميين البارزين، فقتلوهما، وحملوا رأسيهما إلى قرطبة سنة ٣٣٩هـ ، كما أن فتوح بن الخير بن محمد بن خزر كبير أمراء زناتة قد أخذ وجوه وهران وتاهرت إلى قرطبة لإعلان الولاء للأمويين ، وكانوا يحملون بعض الرؤوس من قواد الفاطميين .

هذه الأحداث جعلت المنصور في قلق دائم ، وفكّر في تلك الساعات بأنه لا بد من اتخاذ التدابير والخطوات للزحف إلى المغرب والانضمام إلى الصنهاجيين ، وإنهاء الحرب الطويلة ، ولكن العمر لم يمهله ، فمات قبل أن يتمكن من تنفيذ برنامجه كاملاً ، ويعيد أجزاء دولته الفاطمية المنفصلة .

فضل بن كيداد

بعد عام من وفاة أبي يزيد قام ولده الأصغر « فضل » فدعا من جديد إلى الثورة ، وكأن لم يكفه المائتي ألف مقاتل التي ذهبت ضحية ثورة والده ، فتمكن من التأثير على بعض المعارضين والناقمين من قبيلة زناتة ومن البربر ، فاندفع على رأسهم يحتل المدن والقرى في منطقة كتامة ، راغباً بذلك إعادة سيرة والده ، والاضطلاع بدوره ، ولكن الخليفة المنصور رأى أن هذه الحركة لا تستحق الاهتمام الزائد ، فأرسل ولي عهده المعز لدين الله وكان له من العمر سبعة عشر عاماً ، على رأس فرقة من الجند ، فتمكن من قتله في المعركة الأولى ، وبموته ختمت حياة هذه الأسرة الكيدادية الخارجية ، وطويت صفحتها وشعاراتها إلى الأبد .

والحقيقة فإن التاريخ سجل على صفحاته وبأحرف من الفخار انتصارات المنصور الفاطمي وسيبقى هذا التاريخ ناطقاً بمزاياه ، وعبقريته ، وشخصيته الفذة .

شخصية المنصور
العجيبة

في الحقيقة إن جوانب كثيرة في تاريخ الفاطميين ستظل غير مفهومة عملياً ، بل ستظل مغلقة لدينا ما دمنا نهمل دراسة حقيقة وأوضاع العصر الذي نشأ فيه هؤلاء الخلفاء والمبادىء التي تبنوها ، وأرادوا تعميمها على المجتمع .

فهناك ولا مجال للريب بذلك عبقريات ، ومواهب ، وأفكار سبقت عصرها وتقدمت الزمن ، وان الواجب العلمي يقضي علينا أن نشير إليها . فالإبداع في أي مجال لا تكون له أية قيمة أو مكان إلا إذا بالغ في التعبير عن روح العصر ، أو اهتدى إلى استخلاص الطريق السوي بعيداً عن البلبلة والاضطراب .

فالقول : بأن إنساناً عبقرياً موهوباً ، وأن عبقريته وموهبته

شيئاً قائماً بذاته لا ارتباط له بما يحيط به من مشاكل وأحداث يكون بمثابة الحكم على الإنسان بالجنون ، لان كل عبقرية أو موهبة لا تكون ذات قيمة إلاّ إذا عبرت عن روح العصر الذي نمت فيه .

ومن هنا نجد أن عظماء الإنسانية سواء أكانوا أنبياء ، أو رجال فكر ، أو قادة شعوب يظهرون في عصور الاضطراب الفكري عندما تختلط السبل ، وتتضارب المفاهيم ، ويتكاثر دعاة الهداية الزائفة أو غربان الضلال ، إذن فليست العبقرية متأتية من العدم أو المصدر المطعم بأفكار غريبة شاذة قد لا تختلف في أساسها عن تلك التي تصدر عن الهذيان ، ولكن العبقرية الحقة ، أو المعجزة الإنسانية هي في دراسة واقع العصر ، والاهتداء إلى روحه والتوفيق في التعبير عن حاجاته .

وهذا هو السبب في أن عظماء التاريخ لا يظهرون عادة إلاّ بعد أن تسبقهم التحركات ، والمشاكل ، والتخبط في مجاهل الحياة ، وعندما يأتي العبقري ليمثل الوعي والنضج في سير حركة التاريخ . إذن فمجيئه يكون بناءً على حاجات العصر ومتطلباته . . . من هنا فإننا عندما نضع الخليفة الفاطمي المنصور بالله أمام الواجهة التاريخية فنقول : بأن عبقريته التي

برزت في ذلك العصر ، وإبداعه ، وخلقه ، لم تكن لتتم لولا حاجات ذلك الزمن ، ولولا متطلبات الدولة التي كانت تقف على شفير الهاوية .

أجل . . . لم يترك له والده القائم بأمر الله ، دولة زاهرة موطدة الأركان ناعمة البال ، بل ترك له دولة تتقاذفها الأنواء والتيارات ، وتهدد أمنها وسلامتها الثورات ، ويكفي أن نعلم أن عاصمتها كانت شبه مطوّقة ، يقرع أبوابها الثائرون برماحهم ، ويهددونها بالسقوط المرة تلو المرة ، أضف إلى ذلك استنفاذ الموارد ، وفقدان المتطلبات ، وابتعاد الرجال ، فهبّ المنصور من عرينه وبمفرده ، واستطاع بقوة إرادته وشجاعته أن يسحق الخصوم في الداخل والخارج في سلسلة طاحنة من الحروب المريرة التي برزت فيها عبقريته الحربية ، وخبرته بأساليب القتال ، والكر والفر ، وهكذا تمكن بعد سبعة أعوام من أن يوطد دعائمها ، ويخضع الثائرين لصولتها ، ويكفل لها الأمن والاستقرار والرخاء .

ولم يمد الله بعمره ، بل لم يمنحه الفرصة لتنفيذ منهاجه الذي رسمه لنفسه ولعل هذا من سوء حظ تلك الدولة . . . صحيح . . . ان ولي عهده المعز لدين الله كان طاقة من العبقرية

والذكاء والرجولة ، ولكن برأيي كان المنصور أعظم الخلفاء الفاطميين السابقين واللاحقين ، وإذا كان عبيد الله المهدي يعتبر المؤسس للدولة الفاطمية فإن المنصور يعتبر المنقـــذ لتلك الدولة ، وسيّان بين التشييد والإنقاذ .



مدينة المنصورية

ذكر التاريخ : بأن مهمات الحرب لم تحل دون قيام المنصور بأعمال الإنشاء والعمران ، وقد عرف عنه ولعه الشديد بالتشييد ، والزخرفة ، وتخطيط المدن ، والطرق ، وإقامة الحدائق ، والجنائن ، والملاعب ، ودور العلم ، والمساجد ، وقد ذكر التاريخ أيضاً : ان المنصور قرّر في ذلك العصر أن يستعيض عن العاصمة المهدية ، بعاصمة أخرى تحل محلها ، وتحمل اسم الخليفة الذي خطّط لها . . . وكان اجتهاده بأن العاصمة ، أية عاصمة ، يجب أن تكون بعيدة عن شاطىء البحر ، وذلك لتفادي تعرضها للأخطار التي قد تنجم عن هجوم قراصنة البحر ، والمغيرين بالأساطيل وهذا ما جعله يتوجه إلى دراسة مواقع عديدة لاختيار المكان المناسب للعاصمة المرتقبة ، وكان أن وقع اختياره على موقع يسمّى « صبره » وهو على مقربة من مدينة القيروان ، وهناك وضع الحجر الأساسي لبناء العاصمة المنصورية ، ثم استعان بالمهندسين

والخبراء ، وجعل لهـــا سوراً كبيراً وخمسة أبواب هم : البـــاب القبلي ، والشرقي ، وباب زويلة ، وباب كتـــامة ، كما جعل لها باباً خامساً خاصاً بدخول الجيوش ، وخروجهم وسمّاه « باب الفتوح » ؛ وبنى قصر الخلافة وسمّاه قصر « الهداية » وجلب له المياه من مكان بعيد ، وخطّط للمتنزهات ، والحدائق ، وللشوارع والميادين ؛ كما خطط لبناء مسجد تابع للقصر ، وجلب له الرخام من مدن الروم ، كما نقل للمنصورية أسواق مدينة القيروان ، وصناعتها ، وتجارتها ، فلم يمض سوى عامين حتى ازدهرت فيها التجارة والصناعة وأصبحت تسير في مضمار التقدم ، والرقي ، والازدهار ، وانتقل إليها الأغنياء من التجار والصنّاع ، ورجال الأعمال ، ومن المعلوم أنها ظلّت عاصمة الدولة الفاطمية الرسمية حتى تمّ للمعز لدين الله الفاطمي الخليفة الرابع احتلال مصر ، وبناء القاهرة المعزية ؛ وعندئذ زال عنها طابع العاصمة ، وتحوّلت إلى مدينة أنموذجية حديثة في كل ما في هذه الكلمة من معنى .

مرثية

كلمة رثاء

وأخيراً مات المنصور ، وخسرته الدولة الفاطمية ، في وقت كانت لا تزال بحاجة إليه،وإني لم أجد أبلغ من رثاء ولي العهد المعز لدين الله ، وهذا الرثاء أذيع بمنشور وزع على عموم بلدان المغرب ، ومن المفيد أن نسجله في هذه الصفحات .
قال المعز لدين الله :

« الله أكبر . . . الله أكبر لا إله إلا الله . . . الله أكبر . . . الله أكبر شأناً وأعظم سلطاناً ، وأوضح آيات وبرهاناً عن أن تنكر العقول توحيده ، أو تروم تحديده . . . خالق السموات والأرض ومالكهما ومدبرهما . . . الفرد الصمد . . . الواحد الأحد الذي لا شريك له ولا ند . . . الخالق القدير . . . الرحمن الغفور . . . النافذ قضاؤه . . . الكائن ما يشاؤه . . . المتقن كل شيء صنعاً . . . الموسع كل شيء رزقاً . . . المحيط بكل شيء علماً .

أحمده ، وأستعينه ، وأستغفره وأستهديه وأفوض إليه ، وأتوكل في كل الأمور عليه ، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنّ محمداً خيرته من عباده ونجيه من بريته ، وصفوته من المتطهرين ، ورسوله إلى كافة العالمين ، وبعثه بالإمامة إلى الثقلين ليبلغ حجة الرب ، ويوضح محجة الحق ، فأدى رسالة الله ، ورحم ورأف بعباد الله ، وصبر على الكبّار من مكر الكفّار ، إلى أن أدال الله للحق على الباطل ، والهدى على الأضائل . . محمد صلّى الله عليه وسلم أفضل الصلاة وأزكاها ، وأكملها وأنماها ، وأخلدها ، وأبقاها ، وعلى المهديين من عترته الكرام الابرين الذين اختارهم للخلافة ، وارتضاهم للإمامة ، وأكد بوحيه للرسل حجتهم ، وأوجب في التنزيل طاعتهم بعد تفضيله إياهم على العالمين بأبوة محمد سيد المرسلين ، وعلي أفضل الوصيين ، وعلى سيدة النساءفاطمةخامسة أصحاب الكساء صلوات اللهعليهموعلى أميري المؤمنين المهدي بالله ، والقائم بأمر الله سيدي الورى ، وإمامي الهدى ، اللذين أعلن الله بهما دعوة الحق ، وأنطق بهما الإيمان والمؤمنين ، وأقام بهما دعوة الدين ، وأزهق بحقهما باطل المدعين ، وأكاذيب المتخرصين ، وقطع بسيوفهما دابر الظالمين ، صلوات الله ورحمته وبركاته ورضوانه وتحياته

عليهما . . . اللهم أخصص الإمام الفاضل ، والوصي العادل والبر الفاضل ، والغيث الوابل ذا الآيات المعجزات ، والعزائم النافذات ، الباذل نفسه الكريمة في حين الأزل والكربات ، الصابر في البأساء والضراء حتى طهّر الأرض من جبابرة الأعداء . . . عبدك ووليك ونجيك وصفيك أبا الطاهر المنصور بك والمتوكل عليك ، والمفوض إليك ، العامل بما يرضيك ، ويقرب إليك ، ويزلف لديك الذي فجعتنا بفقده ، وأوحدتنا ببعده ، وأفردتنا منه ، وأوحشتنا فقبلت دعاءه ، وأجبت نداءه ، وجمعت بينه وبين أحبته في مستقر جنتك ، وسعة رحمتك .

إن القلق ، وشدة الحرق عليك يا أبتاه . . . يا سيداه . . . يا أسماعيلاه . . . يا أبا الطاهر . . . يا بحر علوم الأئمة الطاهرين الهداة المهديين ، يا بقية أبناء الرسول ، وأبناء الوصي ، والطاهرة البتول ، يا إمام الأئمة ، ومفتاح باب الرحمة ، يا سراج الهدى ، وشمس الورى ، ومجلي الطخياء ... يا مخصوصاً من الله بتعجيل الكرامة .

عظم والله علينا المصاب بك ، وحلّ البلاء ، وعدم العزاء لفقدك ، وقصرت الألسن عن إدراك إحصاء شمائلك ، وتعداد مناقبك ، فوحق الذي اختصك بكرامته وحباك بجزيل عطائه ، وشرّفك بأبوة رسوله لولا ما أوعزت إليّ به ،

وأكدته عليّ من القيام بحق الله ، والذب عن أمة جدك رسول الله ، واستنقاذهم من غمرة الجهالة ، وبحار الضلالة ، ومهاوي الفتن ، ومعاطب المحن ، وما تقرر عندي ، ورسخ في صدري من الجزاء بمقدار الوفاء لله ولرسوله ولأئمة الهدى ، لضربت على وجهي سائحاً في البلاد ، قالياً للمهاد ، راضياً ببلغة من الزاد إلى أن يلحقني الموت سريعاً بك ، فأفوز بقربك ورحمة ربك ، لكنني فكرت ونظرت وتدبرت فلم أرَ لي وجهاً استوجب به درجتك، واللحاق بشرفك سوى الصبر والاحتساب فتجلدت وصبّرني ربي فصبرت ، وغلب عليّ اليقين فأمسكت. وأقول :

إنّا لله وإنّا إليه راجعون ، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم .. والحمد لله على ما أبلى ، والشكر على ما أولى.

« المعز لدين الله »

الخليفة الشاعر

كان الخليفة الثالث المنصور بالله شاعراً يقدر الشعر ، ويتذوقه باعتباره فناً من الفنون الجميلة يجب أن يعني بها كل من نال حظاً من الثقافة ورقة الشعور ودقة الإحساس ، وقد ذكر أيضاً أن بين أجداده وأحفاده الفاطميين من ينظم الشعر ، ويترنم به ويجيد أوزانه وقوافيه ، وهاتين المقطوعتين التي نحلي بهما هذه الصفحات للمنصور تعبران عن شعوره ورقة عاطفته ، وعراقته بامتلاك ناصية القريض ، والفن الشعري ، والصنعة البديعية البيانية :

يقول :

تبدلت بعد الزعفرانِ وطيبـــه
صدا الدرع من مستحكمات السوامر
ألم ترني بعتُ المقـــامة بالسرى
ولين الحشايا بالخيول الضوامر

وفتيان صدق لا ضغائن بينهم
يثورون ثورات الأسود الخوادر
أروني فتى يغني غنائي ومشهدي
إذا رهج الوادي لوقع الحوافر
أنا الطاهر المنصور من نسل أحمدٍ
بسيفي أقدُّ الهام تحت المغافر

ويذكر التاريخ أنه أرسل هذه المقطوعة إلى ولده المعز لدين الله ، من المنطقة التي كان فيها يطارد أبا يزيد الخارجي :

كتابي إليك من أقصى الغروب
وشوقي شديد عريض طويلْ
أجوبُ القفار وأطوي الرمال
وأحمل نفسي على كلّ هول
أريد بذاك رضاء الإله
وإعزاز دولة آل الرسول
إلى أن يرى الله أجسامنا
وكلّ الركاب وتاه الدليل
فواغربتاه وواوحشتاهُ
وفي الله هذا قليل قليل

وقد منّ ذو العرش من فضله
بفتحٍ مبينٍ وعزٍّ جليل
وفي كل يوم من الله لي
عطاءٌ جديدٌ وصنعٌ جميل
فلله حمدٌ على ما قضى
وحسبيَ ربّي ونعمَ الوكيل

في هذه المقطوعة تظهر شاعرية المنصور الوجدانية ، والرقة ، والجزالة ، والفن في اختيار الكلمات المعبرة ذات النغم المؤثر في النفس ، والموسيقى التي تتقبلها الأذن بخشوع ورهبة، وعندما نضع في صفحات هذا الكتاب هاتين المقطوعتين لا نشك أبداً إلاّ أن للمنصور ولغيره من الخلفاء أيضاً مقاطع من الشعر الجيد، ولكنها ضاعت كما ضاع كل أثر للفاطميين عند ما انتهت دولتهم في مصر ، وربما قبل ذلك عندما قام الصراع بين شاور وضرغام في أواخر العهد الفاطمي ، فتلك الأحداث ، والاضطرابات هي أعظم مأساة أدبية أصابت التراث الفاطمي ، والحياة الفكرية التي كانت معروفة بخصبها وازدهارها .

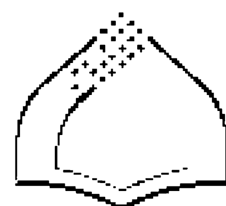
وهنا لا بد لنا من التساؤل عن سبب ضياع تلك الكنوز ؟ فأين شعر الشعراء المائة الذين رثوا يعقوب بن كلّس الوزير بعهدي المعز لدين الله والعزيز بالله ، وأين ديوان ابن حيدرة

العقيلي ، وأين ديوان أبو الحسن علي بن المؤمن بن غسّان الكاتب المصري وكان ديوانه كما ذكر بمجلدين ، واين ديوان أبو الحسن بن مطير ، وديوان ابن الشحناء ، وديوان الملك الصالح بن رزيك ، وديوان القاضي الرشيد بن الزبير ، وديوان أخيه المهذب ، وديوان ابن الضيف ، وديوان ظافر الحدّاد ، وأين ديوان الصوفي ابن الكيزاني ، واين شعر بني عرام شعراء الصعيد ، وأين شعر ابن الصيّاد ، وأين شعر أولاد الكنز بأسوان ، وأين مجموعات ابن بشرون ، وأين شعر إسماعيل الدمياطي المعروف بابن قادوس ؟

وقد يطول بنا الأمر إذا عددنا كل شعراء الدولة الفاطمية والواقع فإن هناك جناية ارتكبها الثعالبي ، والباخرزي ، والعماد ، وابن سعيد المغربي وغيرهم من المؤرخين الذين أرادوا أن يحفظوا في كتبهم شيئاً من الشعر الفاطمي ، فعمدوا إلى عدد قليل من الأبيات ، ولم يدونوا القصيدة كاملة .

وخلاصة القول فإن ما حصلنا عليه من آثار أدبية قليلة تجعلنا نحكم على أن العصر الفاطمي كان خصباً في إنتاج الشعر ، وإنه كان يحتل المكانة الممتازة في الحياة الأدبية ، والسبب في ذلك لأن الخلفاء أنفسهم كانوا شعراء بالفطرة ، ويولون

الشعر أهمية خاصة على اعتباره فناً من فنون الأدب ، يعبر عن خلجات النفس ، وعن العواطف الإنسانية بألفاظ من الرقة والكلام الموزون .



شخصيات مغربية
في خدمة الدولة الفاطمية

لا ريب في أن التنظيم الداخلي لأية دولة ، لا يسير في الدروب المستقيمة إلاّ بعد أن تستقر قواعد الدولة ، وتهدأ أمورها ، وتصبح في مأمن من الهجمات الخارجية ، والثورات العدوانية ، والانتفاضات الداخلية ، وهذا التنظيم يبدأ في وضع الأسس التي يقوم عليها نظام إدارة الدولة ، وما يتفرع عنها من وظائف مختلفة ، ومناصب عليا وصغرى ، صاحبة المسميات التي تتفق مع اختصاصياتها .

والدولة الفاطمية عندما أقامت قواعدها في المغرب ، وقعت في مآزق حرجة ، وخضعت لتيارات جارفة ، ومعارك رهيبة ، وانتفاضات عنيفة ، فكان أمامها شوط بعيد المدى حتى تصل إلى الأمن والاستقرار ، وتوطيد الأركان ، ومن الطبيعي أنه في تلك الفترة لم يتهيأ للخلفاء الفاطميين أو لأحدهم

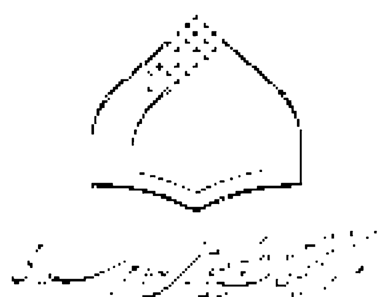
ما يريده من وجود الأعوان الموثوقين المجربين ، فكان عليهم أن يقبضوا بأنفسهم على السلطان ، والاختصاصات ، ويصرفوا الأمور بما يتلاءم وأوضاع الدولة العامة ، ويشرفوا بالوقت نفسه على جميع أوجه النشاطات في الدولة صغيرة كانت أو كبيرة ، ولا يعني ذلك أن الخليفة كان يقوم بكافة الأعمال بمفرده . . . كلاّ . . . ولكنه كان يستعين ببعض من يثق بهم من الرجالات ، أو ببعض من أرادوا وضعهم في مجال التجربة ، واختبار مدى إخلاصهم وكفاءتهم ، ومن الثابت أن نظام الوزارة لم يدخل في إطار الدولة في عهود الخلفاء الثلاثة الأوائل المهدي ، والقائم ، والمنصور الذين حكموا المغرب ، ولكن عندما فتح جوهر الصقلي مصر ، ظلّ يصرّف أمورها بمفرده يعاونه بعض القوّاد مدة تقارب من الأربعة أعوام ، ومن الجدير بالذكر أنه أبقى على نظام الإدارة في البلاد كما كانت عليه ، وأشرف بنفسه على تطبيق الأوامر والقوانين ، وعندما وفد الخليفة الفاطمي الرابع المعز لدين الله إلى مصر استعان بجوهر الصقلي فترة ثم أبعده فترة أخرى خشية من اتساع نفوذه ، وحتى لا تعود مأساة أبو عبد الله الشيعي إلى الوجود مرة أخرى ، ومن الواضح أن المعز لدين الله استعان فيما بعد ببعض الشخصيات

ممن أعطوا لقب وصلاحيات الوزراء ، وعلى رأسهم يعقوب كلس وعسلوج بن الحسن .

ومهما يكن من أمر فإن الفاطميين عندما نقلوا قاعدة دولتهم من المغرب إلى مصر هاجر رجال عديدون من المغرب ، والتحقوا بخدمتهم ، فأدوا للدولة الخدمات ، وتسلموا أعلى المراتب ، واستلموا أهم الصلاحيات ، فكان لهم الفضل بإشادة دعائم الدولة في مصر ، كما كان لهم أو لآبائهم الفضل نفسه في المغرب ، ومن المؤكد أن بعضهم قام بإصلاحات داخلية وعمرانية ، وساهم باستقرار البلاد ، والحفاظ على الأمن . وتنظيم الحياة الاقتصادية والحربية ، وعندما نعلم أن بعضهم كان من أبرز القوّاد العسكريين الذين سبق لهم خوض المعارك ، والاضطلاع بقيادة الجيوش هان علينا أن نعلم أن الدولة الفاطمية كانت مدينة بوجودها للمغاربة ، فعلى أكتاف كتامة ، وصنهاجة ، وزويلة ، وصقلبة ، قامت وبهؤلاء حاربت وانتصرت ، وفتحت الأقطار الأخرى .

في هذه الصفحات ، وبالنظر لأن هذا الموضوع يدخل في نطاق موسوعتنا التاريخية ، رأينا أن نأتي على ملخص لتاريخ هؤلاء الأعلام المغرّبيين الذين ولدوا في عهد قيام الدولة الفاطمية الأول إبّان حكم الخلفاء الثلاث : المهدي ، القائم ، والمنصور ،

ونستثني من البحث كل من القائدين « جوهر الصقلي » فاتح مصر ، و « جعفر بن فلاح » فاتح الشام ، فهذان القائدان سنفرد لهما صفحات خاصة بهما في الجزء الرابع والخامس من الموسوعة الخاصة بالخليفتين الرابع والخامس ـ المعز لدين الله ـ والعزيز بالله .



جبر بن القاسم

من أهل المغرب الذين عاصروا الخليفة الفاطمي الثالث المنصور بالله . قدم مع المعز لدين الله إلى مصر ، وكان موضع ثقته . اشتهر بتفوقه في علم الاقتصاد ، والإدارة . اعتبره التاريخ من كبار رجالات الدولة الفاطمية ، وقد بلغ من ثقة الفاطميين به أن الخليفة الخامس العزيز بالله عندما خرج لقتال «أفتكين» في الشام عيّنه نائباً عنه،وأوكل إليه صلاحيات رئاسة الدولة ، فكانت الرسائل التي ترد إليه تقرأ على المنابر ، وفي المجتمعات باسمه ، وقد أشرف هو والحسن بن تأييد الله ، وعبد الله بن خلف المرصادي ، وعلي بن عمر العدّاس على أمور الخراج ، ووضعوا للدولة نظاماً اقتصادياً كفل لها الحياة الطيبة والمزيد من الازدهار ، والرفاه الاقتصادي .

الحسن بن عمار

من أمراء قبيلة كتامة المغربية . لقبه أمين الدولة . تولّى المناصب العالية بعهد الخليفة الفاطمي السادس الحاكم بأمر الله ، ولكن نسب إليه الانحياز إلى المغاربة ضد المشارقة ، وهذا ما جعل « برجوان » يسعى به ، ويعمل على إبعاده عن منصبه ، ومما يجب أن يذكر أن أسرة آل عمّار الكتاميين لعبوا دوراً كبيراً في الحياة الفكرية للفاطميين ، فكان منهم العديد من الرجال الذين تولوا مهمة الإرشاد والإعلام والقضاء ، وقد أشرنا في الأجزاء السابقة إلى أنهم اضطلعوا بمهمة القضاء بمدينة طرابلس لبنان بعهد الفاطميين ، وإليهم يعود الفضل في تأسيس مكتبة طرابلس الكبرى التي أحرقها الصليبيون عندما فتحوا المدينة ، وكانت هذه المكتبة هي الأولى في العالم الإسلامي باتساعها وبما تحتوي عليه من الموسوعات القيمة ، والكتب العربية الجليلة .

أبو الفتوح برجوان

كان من الصقالبة ، وهو عبد خصي تربّى في قصور الفاطميين في المغرب . ثم جاء فيما بعد مع الخليفة الرابع المعز لدين الله ، فظلّ قائماً بخدمتهم حتى عهد الحاكم بأمر الله ، سار في بدء حياته سيرة حسنة ، فكان موضع ثقة الخلفاء في المغرب ، وهكذا في مصر . وإليه يعود الفضل بإعادة الأمن والاستقرار إلى بعض المناطق ، ثم عهد إليه فيما بعد بقيادة الجيوش الفاطمية في الشام ، فقام بالمهمة خير قيام ، وحارب الروم حرباً لا هوادة فيها حتى اضطرهم في نهاية المطاف إلى طلب الهدنة . قتله الخليفة الحاكم بأمر الله بعد أن وصل به الغرور إلى حد التدخل بشؤون الأسرة الفاطمية الداخلية .

الحسين بن جوهر *

هو نجل القائد الكبير جوهر الصقلي فاتح مصر . لقب بقائد القواد . اشتهر ببعد نظره في القضايا الفقهية ، لهذا عين برتبة قاضي ممتاز مهمته النظر في أمور الناس ، وإنصاف المظلومين ، وكل هذا جعل له مكانة كبرى في صدور الناس . لم يعش طويلاً .

عمار بن محمد

كان يتولّى ديوان الإنشاء ، ومكتب المشارقة والاتراك، وكان مفوضاً من قبل الحاكم بأمر الله بالتوقيع عنه في حال غيابه ، وخاصة في الأمور المستعصية . اشهر بعلمه وامتلاكه القدرات الفكرية ، والإمكانيات العقلية . ذكر التاريخ أنه قتل غيلةً .



عباس يحيى بن باديس

هذا الرجل ينحدر من أسرة الملك الصنهاجي المغربي المعز بن باديس . . . هاجر مع والدته في ظروف غامضة إلى مصر وهو صبي ، وعندما كبر التحق بخدمة الدولة الفاطمية فلقب بعد حين بالأمير ركن الإسلام . تولّى الوزارة الأولى بعد مقتل ابن السلاّر بعهد الخليفة الظافر .

الامير الأفضل نجم ٥

ابن مصال

من عائلات المغرب العريقة . وفد إلى مصر من المغرب ، والتحق بخدمة الفاطميين وكان موضع ثقتهم . تولّى الوزارة مرتين . كان طيب السيرة . . . ومحبوباً من الجميع .

سليم بن محمد
ابن يصال

استوزر في القاهرة المعزية مرتين أيضاً ... هو أيضاً من عائلات المغرب الكبيرة الذين هاجروا إلى مصر والتحقوا بخدمة الفاطميين .

بنو النعمان

لم يعرف التاريخ الإسلامي أسرة كان لها الأثر في الحياة العقلية الفكرية والسياسية ما كان لأسرة بني النعمان .

كبير هذه الأسرة ورأسها هو القاضي النعمان بن حيُّون الذي ذكرنا موجزاً عن حياته في الجزء الثاني ، وقد اختلف في تاريخ مولده فذهب بعضهم إلى أنه ولد سنة ٢٥٩هـ.لم يصلنا أية تفصيلات تاريخية عن نشأته الأولى ، ولا عن آبائه وأسرته إلاّ ما رواه ابن خلكان : بأن والده هو : أبو عبد الله محمد ، وقد دفن في القيروان سنة٣٥١هـ من هنا فإن حياة الأسرةغامضة أشد الغموض .

علي بن النعمان

ولد في القيروان سنة ٣٢٨هـ . قدم إلى مصر مع باقي أسرته في صحبة الخليفة الفاطمي الرابع المعز لدين الله ، وبعد وفاة والده اشترك في قضاء مصر مع أبي طاهر الذهلي ، وعندما أصيب الذهلي بمرض الفالج فوض إليه الحكم ، وظلّ منفرداً بالقضاء . أصيب فجأة بالحمّى وهو بالجامع يقضي بين الناس ، ويقوم بالوعظ والإرشاد ، وإعطاء الدروس ، فنقل إلى داره ، ولكن لم تمهله الحمّى سوى بضعة أيام . كان عالماً فقيهاً وشاعراً مطبوعاً ، روى له الثعالبي بعض المقاطع الشعرية ، وكان يحمل لقب قاضي القضاة . وفاته كانت سنة ٣٧٤ هـ .

محمد بن النعمان

بعد وفاة علي بن النعمان أرسل الخليفة الفاطمي الخامس العزيز بالله إلى محمد بن النعمان كتاباً يقول فيه :

« إن القضاء لك بعد أخيك ، ولا نخرجه من هذا البيت » .

ومن الجدير بالذكر أن الخليفة العزيز بالله لمّا ذهب إلى حرب القرامطة سنة ٣٦٨هـ رافقه علي بن النعمان ، وفوض أخيه محمد بالقضاء في مصر .

ولد في المغرب سنة ٣٤٥هـ ، وقدم إلى القاهرة مع باقي أفراد الأسرة . كان جيّد المعرفة بالأحكام ، والفقه والتشريع الإسلامي ، يلم بعلوم كثيرة ، حسن الأدب والدراية بالأخبار والشعر وأيام الناس . زوّج ولده عبد العزيز بابنة القائد جوهر الصقلي . علت مكانته حتى أنه كان يصعد مع الخليفة على المنبر . ذكر التاريخ : أنه كان مهيباً محترماً ، وكان الناس يخاطبونه بسيدنا ، وذكر ابن خلكان عن المؤرخ المصري ابن

زولاق أنه لم يشاهد بمصر لقاضٍ من القضاة من الرئاسة والاحترام ما شوهد لمحمد بن النعمان . عرف بأن الوزير يعقوب بن كلّس نقم عليه حسداً من مكانته ، ومن محبة الناس له ، ويمكن أن يكون ابن كلّس قد خاف من اتساع نفوذ بني النعمان ، فحاول كسر شوكتهم ، والانقاص من قدرهم .
بعد وفاة العزيز بالله سنة ٣٨٥هـ أقر الخليفة السادس الحاكم بأمر الله القاضي محمد بن النعمان على القضاء ، وزادت منزلته رفعة عنده ، ولكن في نهاية الأمر تزاحمت عليه العلل فمات سنة ٣٩٩هـ .

الحسين بن علي
بن النعمان

ولد بالمهدية بالمغرب سنة ٣٥٣هـ تدرب ودرس على عمه محمد بن النعمان فمهر في علوم الفقه حتّى أصبح من المرموقين، ومن الأقطاب البارزين الذين يرجع إليهم الناس، وكان ينوب عن عمه محمد بن النعمان أحياناً في القضاء. ذكر أنه بعد أن تسلّم شؤون القضاء سنة ٣٩١هـ وبينما كان في أحد الأيام جالساً في الجامع الأزهر يقرأ في الكتب، أقيمت صلاة العصر فنهض يؤدي الفريضة، وبينما هو في الركوع هجم عليه أحد الرجال وضربه بمنجل في رأسه ووجهه، فحمل جريحاً إلى داره، وظلّ حتّى اندمل جرحه، فصار من ذلك اليوم يحرسه عشرون رجلاً بالسلاح، ولا نكاد نسمع أن قاضياً من قضاة المسلمين قبله كان يحرسه مثل هذا العدد من الحرّاس. منحه الخليفة الحاكم بأمر الله الصلاحيات الواسعة، وأضاف إليه أرزاق

عمه وإقطاعاته ، وفوّض إليه الخطابة والإمامة في كافة مساجد القاهرة كما ولاّه الدعوة ، وقراءة مجالس الحكمة ، ويبدو أنه في ذلك الوقت دبّ الشقاق بين أبناء الأسرة ، حينما طالب ابن عمه عبد العزيز بن محمد ببعض ودائع كانت في الديوان أيام ولاية محمد بن النعمان ، وتشدّد في طلبها حتى اضطره الى بيع كل مخلفات والده تسديداً لها .

لم يعرف في أخريات أيامه سبب غضب الحاكم بأمر الله عليه ، فقد عزله عن رتبة القضاء سنة ٣٩٤هـ ثم حبسه، وبعد مدة ضرب عنقه سنة ٣٩٥هـ .

عبد العزيز بن محمد بن النعمان

ولي القضاء بعد علي بن النعمان . ولد سنة ٣٥٥هـ. كان عالماً جليلاً . ولي النظر وإدارة «دار العلم» . سنة ٣٩٨هـ عزل من القضاء ، وفي السنة التالية اعتقل ثم عفي عنه ، وعاد إلى وظيفته ، وخلع عليه، وفي سنة ٤٠١هـ فرّ هو والحسين بن جوهر الصقلي من الديار المصرية إلى مكان مجهول خوفاً من بطش الحاكم ، فصادر الحاكم بأمر الله بيوتهما ، وكل ما كان فيها ، وبعد فترة عفي عنهما ، وخابرهما بالعودة ، وعندما عادا في أواخر سنة ٤٠١هـ . أمر بإعدامهما .

القاسم بن عبد العزيز
بن محمد بن النعمان

ولي القضاء سنة٤١٨هـ ولكنه لم يمكث في هذه المرتبة سوى عام وشهرين ثم أعيد سنة ٤٢٧ إلى وظيفته ، ثم عزل سنة ٤٤١ ، كان ضعيفاً ، وليس له قدرة على الحكم .

محمد بن القاسم

عين مكان والده سنة ٤٥٠هـ ، ثم عزل ، ويكون هذا آخر رجل من بني النعمان يتولّى شؤون القضاء ، ويبدو أن في عهده ساءت أحوال بني النعمان ، ولم تبق لهم أية سطوة أو نفوذ بعد حكم استمر قرابة قرن كان الفضل فيه إلى المؤسس الأول القاضي النعمان بن محمد بن حيّون التميمي .

تصويبات تاريخية *

سبب وفاة الخليفة الفاطمي المنصور بالله أنه خرج سنة ٣٤٢ هـ متنزهاً إلى بلدة « جلولاء » وتبعد عن القيروان أربعة وعشرون ميلاً — وهو موضع كثير الثمار والفواكه والرياحين وفيه من الأترُج ما لا يحمل الجمل منه غير أربع . . . وعندما كان في طريق العودة هب ريح شديد وبرد ومطر وكثُر الثلج فمات جماعة ممن معه .

واعتلّ المنصور علة شديدة وبعد وصوله إلى المنصورية أراد عبور الحمام فنهاه طبيبه إسحاق بن سليمان اليهودي عن ذلك فلم يقبل ودخل الحمام فذهبت الحرارة الغريزية منه ولازمه السهر ، فأخذ طبيبه يعالج المرض دون السهر ، فاشتد ذلك على المنصور وقال لبعض خواصه : أما في البلاد طبيب غير إسحاق ؟ فاحضر إليه شاباً من الأطباء يقال له : « أحمد بن إبراهيم الجزار » فشكا إليه ما يجده من السهر ،

فجمع له أشياء مخدرة وجعلت في قنينة على النار وكلفه شمها فنام وخرج وهو مسرور بما فعله ، فجاء إسحاق ليدخل على المنصور فقيل له أنه نائم فقال : « إن كان صُنع له شيء ينام منه فقد مات » فدخلوا عليه فإذا هو ميت . . . فدفن في قصره وأرادوا قتل ابن الجزار فمنعهم إسحاق بقوله : لا ذنب له إنما داواه بما ذكره الأطباء غير أنه جهل أصل المرض وما عرفتموه وذلك أنني في معالجته كنت أقصد تقوية الحرارة الغريزية وبها يكون النوم ، فلما عولج بما يطفئها علمت أنه مات » .

عندما فتح المنصور القيروان أو خلصها من أبي يزيد . . . خرج إليه الناس فأمّنهم ، ووجد في المدينة حرماً وأولاداً لأبي يزيد فحملهم إلى المهدية وأكرمهم وأجرى عليهم الأرزاق . . . وبعد مدة بعث إلى المنصور يسأله أن يسلم إليه حرمه وعياله لقاء دخوله في طاعته وحلف على ذلك بأغلظ الإيمان فسيّر إليه المنصور عياله مكرمين بعد أن وصلهم وكساهم وحمّلهم الهدايا ... فلما وصلوا إليه نكث وقال : انما وجههم خوفاً مني » .

فهرس الموضوعات



مصادر البحث التاريخية

تاريخ الدولة الفاطمية – حسن إبراهيم حسن ١٩٥٨ .
الفاطميون في مصر وأعمالهم السياسية والدينية – حسن إبراهيم حسن ١٩٣٢ .
تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي – حسن إبراهيم حسن ١٩٤٦ .
النظم السياسية بالاشتراك مع علي إبراهيم حسن – حسن إبراهيم حسن ١٩٣٩ .
عبيد الله المهدي بالاشتراك مع طه أحمد شرف ١٩٤٥ .
المعز لدين الله بالاشتراك مع طه أحمد شرف ١٩٤٧ .
كنوز الفاطميين – زكي محمد ١٩٣٧ .
تاريخ جوهر الصقلي – علي إبراهيم حسن ١٩٣٣ .
في أدب مصر الفاطمية – محمد كامل حسين ١٩٥٠ .

النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق ـ محمد جمال سرور ١٩٥٧ .

مصر في عهد الدولة الفاطمية ، محمد جمال سرور ١٩٥٧

مجموعة الوثائق الفاطمية ـ جمال الدين الشيّال ١٩٥٨ .

الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية ـ محمد عبد الله عنان ١٩٣٧ .

نظم الفاطميين ورسولهم في مصر ـ عبد المنعم ماجد ١٩٣٧ .

السجلات المستنصرية ـ عبد المنعم ماجد ١٩٥٤ .

الإمام المستنصر بالله الفاطمي ـ عبد المنعم ماجد ١٩٦١ .

الحاكم بأمر الله المفترى عليه ـ عبد المنعم ماجد ١٩٥٩ .

نظم الحكم في مصر الفاطميين ـ مصطفى عطيه مشرفه ١٩٤٨.

سيرة جعفر الحاجب ـ و . إيفانوف ١٩٣٠ .

صلة تاريخ الطبري ـ غريب بن سعد ـ .

كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ـ الباقلاني ١٩٣٩ .

رسائل الحاكم بأمرالله كتب سنة ٤٠٨ (مخطوطة) بدار الكتب

عبقرية الفاطميين ـ محمد حسن الأعظمي ١٩٦٠ .

الصليحيون ـ حسين همداني ١٩٦٠

افتتاح الدعوة ـ النعمان بن حيون ـ .

المجالس والمسايرات ــ النعمان بن حيّون ــ .

الهمة في آداب أتباع الأئمة ــ محمد كامل حسين ١٩٥٠ .

عيون الأخبار ــ إدريس عماد الدين ــ .

فرق الشيعة   النوبختي

اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ــ المقريزي .

نظام الوزارة في العصر الفاطمي ــ مقالة في مجلة الثقافة ــ جمال الدين الشيّال ١٩٥١ .

أصل الذمة في العصر الفاطمي ــ مقالة في مجلة المقتطف ــ جمال الدين الشيّال ١٩٤٥ .

البيان المغرب في أخبار المغرب ــ ابن عذارى .

سيرة الأستاذ جوذر الكاتب ــ محمد كامل حسين ومحمد عبد الهادي شعيره .

الناصر لدين الله ــ سيمون حايك ١٩٦٢ .

أخبار ملوك بنو عبيد وسيرتهم ــ فوندر ــ ليدن ١٩٢٧ .

معجم البلدان ــ ياقوت الحموي .

تاريخ الرسل والملوك ــ الطبري .

تقويم البلدان ــ أبو الفداء .

كتاب البلدان ــ اليعقوبي .

المصادر الأجنبية

The Alleged - Founder of Ismaïlism - Bombay - W Ivanow - 1946 .

The Origins of Ismaïlism : B. Lewis .

The Quaddahid Legend : Abbas Hamdani .

Mémoires sur les Quarmates de Bahrein et les Fatimits - Leyden - 1886 - De Goeje - M.G

Polimics on the origin of the Fatimis - Caliphs - Prince - Mamour - London 1934 .

Fatimid - Decrees - Stern - S.M. London .

Quelques Chroniques Anciennes aux derniers Fatimides 1937 .

L'impérialisme des Fatimides et leur propagande 1942 -1947 .

Essaie sur l'histoire des Ismailiens de la Perse : Defremery, M.C.

Fragments relatif à la Doctrine des Ismailis - Hamdani , Paris , 1874 .

Studies in The Early Persian Ismaïlism - Leiden - 1948 .

The rise of the Fatimids - Calcuta, 1942 .

A Guide to Ismaïli Literature : London, 1933.

A short history of the Fatimid Khalifate - London (1923).

Description du Maghreb — Leiden 1860.

The letters of Al Mustansir — School of oriental of London 1934.

En Quête aux pays du Levant — « M. Barrès ».